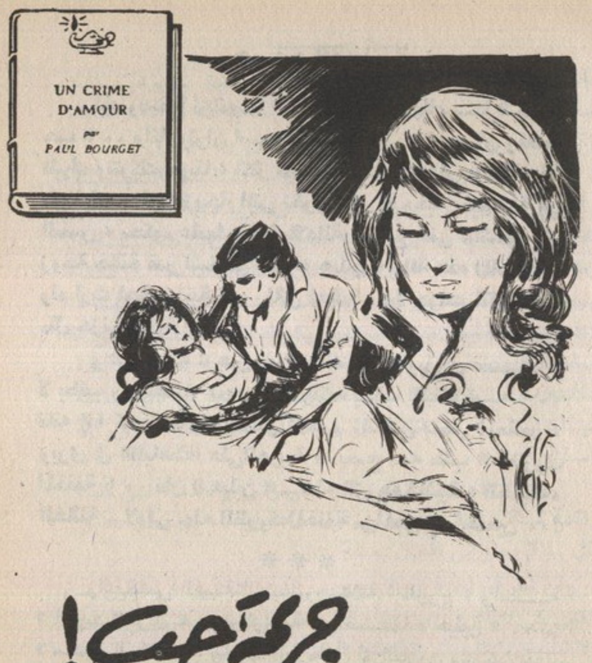


كتابي
جريمة حب
Looloo
www.dvd4arab.com
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
حلمي مراد



جريمة حب!

پول بورچيه

هــذه القصــة

لقد وصفها مؤلفها « بول بورجيه » بانها « جريمة حب » .. وانا أوثران اسميها « مأساة حب » ! .. لأن وقائعها تثير وتتركك حزينا ، اكثر مما تثير فى نفسك على بطلتها حقدا دفينا ! .. ان الزوجة التى تخون عهد الزوجية بغيضة إلى النفس ، محكوم عليها مقدما بالادانة .. غير اننى لم اشفق على زوجة خائنة قدر اشفاقى على « هيلين » بطلة هذه المأساة .. ولم ارث لحال مذنبة قدر رثائى لحالها ، ولا حزنت لمآل خاطئة مثل حزنى لمآلها !

و « بورجيه » حين يعرض قضيتها ، ويروى قصتها ، لا يطلب رد القضاء عنها .. ولكنه يطلب اللطف فيه ! .. فانه إذا كان القانون يلتمس للمجرم المتلبس بعض المعاذير ، ويرى فى « الباعث » على الجريمة ما يصح معه طلب « الظروف المخففة » .. فان « هيلين » ـ هذه الزوجة المذنبة ، الخاطئة ، الخائنة ـ لأولى بهذه الظروف المخففة من المجرمين اجمعين .. !

* * *

واشخاص القصة الرئيسيون ثلاثة : الزوج ، واسمه « الفريد شازيل » .. والزوجة ، واسمها « هيلين » .. ثم « صديق العائلة » ، واسمه (ارمان) او البارون دى كيرن ..

● اما الزوجة ـ هيلين ـ فامرأة فارعة القوام ، لينة الاعطاف . ذات خصر مستدير نحيل ، ويدين بضتين صغيرتين ، وقدمين دقيقتين رقيقتين .. يمتزج جمال وجهها بجمال قامتها امتزاج نغمين جميلين متسقين متجاوبين ! .. شعرها كستنائى

فاتن ، تنقسم جدائله المصففة بمفرق رقيق .. وعيناها سوداوان ، يشع منهما وهج العاطفة المشبوبة ، فى انفة وتحفظ وكبرياء .. وانفها دقيق ، يتصل بجبين وضاء ..

● واما الزوج ـ الفريد شازيل ـ فشاب فى الثانية والثلاثين ، من أسرة متوسطة .. شق طريقه فى الحياة فى كد وجلد وتعب ، فحاز درجات علمية ممتازة فى الهندسة ، وظل يتدرج فى سلم العمل حتى عين اخيرا مهندسا فى بلدية باريس .. وكانت تبدو عليه رغم صغر سنه علامات الاجهاد ، ونذر من شيخوخة مبكرة .. فهو يكاد يكون اصلع الراس ، شاحب اللون ، نحيل الكتفين .. هندامه دائما أشعث ، لقلة عنايته به .. وليس فى حركاته وايماءاته شيء من اللباقة او الكياسة .. غير انك تتبين فى حدقة عينيه طيبة وبراءة وسذاجة ...

وحياة الفريد شازيل تسير على وتيرة واحدة ، فهى حياة راكدة مملة ، تنقضى فى عمل متواصل شاق .. وجهل مطبق بكل ما لا يمت إلى العمل بصلة .. !

وان نظرة واحدة إلى الزوجين ـ الفريد شازيل ، وهيلين ـ لتكفى كى تدلك فى غير عناء على انهما ليسا من طراز واحد ولا نسيج مؤتلف .. فالتنافر الجسمانى بينهما كبير ... واما فى اتجاهات التفكير والعاطفة فبينهما فوارق جسام ، ليس إلى إزالتها من سبيل : فهما زوجان متعارضان ... وحبيبان متنافران !

● هل كان هذا التنافر الواضح يبدو للشخص الثالث الذى كان يدعى « ارمان » ؟ .. لقد كانت تربط « ارمان » بهذه

الأسرة وشائج صداقة متينة لا كلفة فيها .. وكان الفارق بين الفريد وزوجته هيلين يقابله فارق آخر بين الفريد وصديقه ارمان .. فبقدر ما كان الاول يحتفظ بقلبه بكرا من كل لوثة ، كانت تبدو على الثانى امارات الشاب الذى عاش حياة حافلة بالمغامرات .. وبقدر ما كان الزوج يبدو اكبر من سنه ، كان الصديق يبدو أصغر من سنه ، رغم انه كان هو الآخر فى الثانية والثلاثين ، ينحدر من اسرة عريقة ــ فهو ابن نبيل يدعى البارون دى كيرن ! ــ وهو حسن الهندام .. جميل القوام .. يزين اصبعه بخاتم ثمين .. ذو يدين بضتين دقيقتين ، وشارب رشيق رقيق يرتسم فوق شفة تفتر عن ابتسامة ساخرة ! .. وكانت عنايته بهندامه تدل على انه شاب غنى متعطل ، حياته كلها فراغ ، ومن عينيه تشع نظرات قلقة .. حادة !

الفصل الاول : قبل الخطيئة !

● تبدا القصة فاذا ابطالها الثلاثة مجتمعون ذات مساء فى حجرة استقبال جميلة التنسيق والاثاث ، بمنزل الزوجين الكائن فى شارع « لاروشفوكو » بباريس .. وإذا الزوج « الفريد شازيل » يبتدر جليسيه قائلا : « انها الساعة العاشرة الآن ... هل يتحتم على ان البى الليلة دعوة اسرة ملبورن ؟ .. ترى ماذا يحدث ياعزيزتى هيلين إذا انا لم البى هذه الدعوة ؟» ..

فتجيبه زوجته : « إنه يكون منا عقوقا نحو اناس كانوا دائما معنا نموذجا لحسن المعشر منذ ان قدمنا إلى باريس ... آه ، لو لم يكن هذا الصداع لجئت معك ! .. ارجو ان تعتذر لهم عن تخلفى .. هيا تشجع واذهب ! »

ونهضت هيلين فمدت يدها إلى زوجها ، الذى جذبها إليه وقبلها .. ولم يكن من العسير ان تلمح على وجه هيلين ظلال الالم الذى تحملته من وطاة هذه القبلة .. !

ومد الفريد يده إلى صديقه ارمان مصافحا وهو يقول له : « سوف لا اغيب اكثر من ساعة ، فارجو ان القاك هنا عندما اعود ؟ ! »

وانصرف .. فبقى ارمان ومدام شازيل منفردين فى الغرفة ، وقد خيم عليهما صمت طال بضع دقائق ، كانت هيلين اثناءها لم تزل واقفة فى الحجرة وعيناها مصوبتان إلى ارمان .. الذى كان يجيب على نظراتها إليه بابتسامة ، وهو ينفث دخان لفافة التبغ فى سماء الغرفة ..

وما ان ابتعدت العربة التى اقلت الزوج حتى تقدمت هيلين إلى المقعد الذى كان ارمان مستقليا عليه ، وبحركة لبقة انتزعت من فمه لفافة التبغ والقت بها فى النار .. ثم جثت على ركبتيها امامه واحاطت راسه بذراعيها و .. طبعت على شفتيه قبلة ، وهى تقول له فى دلال :

ــ ارمان ، هل تحبنى .. اليوم ؟

ــ وانت .. هل تحبيننى ؟

ــ آه ياخبيث ! انت لست فى حاجة لأن اقولها لك حتى تصدقنى !

ــ اعلم انك تحبيننى .. ولكن ليس الحب الذى يمكنك من المضى إلى آخر الشوط .. ؟ !

قالها بلهجة ساخرة .. ولم يكن عســيرا على هيلين ان تدرك مغزى ايماءته هذه .. ومعناها .. ومرماها ! .. فاجابته على الفور :

— أنت ممعن فى التحدى يا ارمان ! الا تستطيع الوثوق من عواطفى بدون هذا .. « الدليل » ؟؟

— « دليل » ؟ .. اتسمين هذا دليلا ! ؟ ان الهبة الكاملة المطلقة ليست «دليلا» .. إنها الحب نفسه ! وما دمت تأبين ان تكونى لى « كلك » ، فاننى لا املك غير ان اشك فى حقيقة حبك لى .. فكثيرا ما يتخيل الانسان انه يحب آخر ، وهو فى الحقيقة لا يحبه ! فاذا كنت تحبيننى كما تقولين ، او كمـا تتوهمين ، فهل كان يمكن ان ترفضى ذلك الموعد الذى طلبتـــه منـك عشرين مرة ؟ كلا ! بل كنت تلبين طلبى مرحبة ، مرضـاة لى ولك معاً .. !

— ارمان !

قالتها ولم تزد .. ثم نهضت وقد احمرت وجنتـاها واخذت تذرع الحجرة ذهابا وجيئة دون ان تنظر إليــه .. فقد دنت الساعة الحاسمة التى ليس منها مفــر ! .. وكانت هيلين تعرف ذلك ، فقد انقضى اسبوعان وهى تصاول ارمان وتناجزه .. وكانت تحس بانهـا تخرج من كل مناجزة منهزمة خاسرة .. وكانت تخشى إن هى اصرت على رفض ما يطلب ان يفقد ثقته فى حبها ، وهى التى كانت تحبه حبا ملك عليهـا قلبها .. حب المراة التى تريد ان تبذل كل شىء لتمنح السعادة لحبيبها ! .. وكانت هيلين تعلم بانه سيتعين عليها ان تواجه

بين لحظة واخرى امرا خطيرا ، تواجه الخطيئة المحتومة ! .. فاعتزمت ان تقدم نفسها قربانا لحبيبها .. ولكن ودت لو كانت حرة من كل واجب ، وعلى الأخص من واجبها نحو ابنهـا — ذلك المخلوق الوحيد الذى لا تستطيع ان تضحى به من اجل عشيقها ! — اذن لما ضنت على « ارمان » بشىء .. بل لفرت معه إلى آخر الدنيا ، لتقدم له حياتها كلها هبة خالصة !

● كانت هــذه الأفكار تساورها وهى ماتزال تروح فى الغرفة وتجىء .. ثم استقرت نظرتها على حبيبهـا ، وقالت له .. بلهجة من اعتزمت امرا :

— ارمـان ! لا تبتئس ! إننى ارضى بكل ما تـريد !.. ترى هل يسعدك هذا ؟

— ياله من سؤال ؟ الم تنظرى إلى وجهك فى المرآة ؟ الم ترى سحر عينيك .. وخديك الورديين الناعمين .. وشعرك الانيق الدقيق .. وفمك الشهى العذب ؟

قال هذا وهو يضمها إلى صدره بقــوة ، حتى كادت تختنق .. كان كمن ينبش بنظراته الجائعة مفاتن جسـمها ، ما بان منها وما استتر .. ما وضح منها وما غاب عن النظر ! .. ولمحت هيلين على وجهــه دلائل الاقدام على عمل جــرىء ، خطير ! .. فجمعت اطراف شجاعتها لتتخلص منه ، ولم تجـد ما تدفع به هذا الخطر الداهم الا مسارعتها بالقول :

— ساكون لك غدا .. إذا اردت !

كان ارمان كمن افاق من نشوة غاشية عند ما سـمعها تنطق بهذه الكلمات .. فسالها على الفـور : « اين تريدين ان

نلتقى ؟ هل فى منزلى ؟ إن من السهل على ان اتخلص من خادمى غدا بعد الظهر ! » .. لكنها اجابته مسرعة : « لا ! لا ! ليس فى منزلك ! » .. فقد لاح امام ناظريها فى تلك اللحظة المرهوبة شبح مخيف : خيل إليها انها ترى امامها النساء اللواتى سبقتها إلى منزل ارمان .. اولئك النسوة اللواتى تقف صورهن المفزعة دائما حاجزا بين المراة ومن تحب، وكانها نذر لها بمصير كمصيرهن ، وعاقبة مثل عاقبتهن ! .. ولئن كانت مظاهر الحب المادية واحدة فى كل الحالات ، فلا اقل من ان يجرى فى هيلين حكم القدر على اساس غير هذا الأساس .. !

وعاد ارمان يسالها : « هل تريدين ان اطلب إلى احد اصدقائى ان يعيرنى منزله .. ؟ » !

غير انها عادت إلى الرفض .. فقد لاح امام ناظريها شبح آخر مخيف : خيل إليها انها تنصت مقدما إلى الحديث الذى سيدور بين الصديقين ! .. إنها قد كانت حتى الآن امراة شريفة .. وإذا كانت اليوم قد احبت فهى ترى ان حبها من طراز انقى من ذلك الذى سيتخيله الصديق المجهول ، صاحب المنزل المعار ! .. انه لن يرى فى طلب ارمان الا مغامرة لا تتميز عن سائر مغامراته ! ..

واعترتها رعدة وهى تتخيل كل ذلك ، فعادت تنظر إلى ارمان .. ولو استطاعت ان تقرا ما كان يدور فى مخيلته لحظتئذ لارتعبت ! .. انها لم تكن المغامرة الاولى لارمان .. وكان هو يعتقد انها بالنسبة لهيلين بدورها ليست اول سقطة ! ..

انها قد طالما قالت له انه حبها الأول وحبيبها الأول ، ولكن اى دليل تستطيع به ان تثبت صحة ما تقول ؟ .. إنه رجل تعود الكذب على النساء ، وتعود أن تكذب عليه النساء ، فلماذا لا يتشكك فيها ولماذا لا يرتاب ؟

وعاد يسالها :

ـ ما رايك لو اثثت لك شقة صغيرة جديدة ؟ !

لكنها عادت إلى الرفض ! .. فانها وإن كانت لم تفتا تحلم بان يكون لها عش خاص ، الا انها كانت تخشى إذا هى قبلت هذا العرض ان يشك هو فى انها تقبله رغبة منها فى كسب الوقت واطالة الامد على موعد اللقاء .. وفوق ذلك فقد كانت تتهيب مقدما اثارة فضول سكان المنزل ، الذين سوف تكون بالنسبة لهم دائما : المراة المقنعة التى يختلسون النظر إليها ، عساهم يعرفون من تكون ! .. ومن هنا اجابت صاحبها : « لا تسىء الحكم على يا ارمان ! افهمنى جيدا ... اننى اريد ان اكون لك فى مكان لا يبقى منه بعد ذلك اثر ! .. إن تلك الشقة التى ستؤثثها لى .. ماذا سيكون مصيرها إذا ما عزفت يوما عن حبى ؟ لست اطيق مجرد التفكير فى هذا .. إننى استحلفك من الآن ان لا تؤلم مشاعرى .. افهمنى يا ارمان ، افهمنى ! » .

ونهضت هيلين من مكانها فمضت إلى حيث كان يجلس ارمان ، وقالت بعد تنهد عميق :

ـ آه لو كنت استطيع ان اعرف ماذا يدور فى راسك ؟ ان فى هذا الحيز الضيق سعادتى ، كما ان فيه يكمن شقائى !

ــ لو انك استطعت قراءة ما يدور فى مخيلتى لمـــا رايت غير صورتك . .

ــ ساقرا ما يدور فيها غدا . .

ــ غدا ؟ إننا لم نتفق بعد على المكان . ولم يبق الا الشقة المفروشة . . او الفندق ؟

الشقة . . او الفندق ؟ كلمتان انتفضت لدى سماعهمــا هيلين ! . . إن عار الزنا تمثل لهـــا مجسما بشـــعا فى هاتين الكلمتين . . إنها ستدلف إلى مكان دلفت إليــه من قبلهـــا كثيرات ! . . ما اقبح هذا الاطار الذى سيحيط بحبها ! اثاث استخدم لغيرها من النســاء ، لا يحمل طابعها ولا اسمها ! . . انه تلوث على اى حـــال ، وفى كل مكان . . غير ان التلوث فى الفندق قد يكون اقل بشــاعة ! . . وكانت تعتقد ان ارمـــان سيتورع عن اخذها إلى فندق سبق ان قـــاد إليـــه غيرها . . فجمعت ما تبقى لها من شجاعة وقالت :

ــ هل تستطيع العثور على هـــذا الفندق صباح غد ؟

ــ اننى اعرف منزلا مناسبا للغاية كان ينزل فيه احـــد اصدقائى من الإنجليز . . حسنا ، سوف ارسل اليك غدا بين الساعة العاشرة والحادية عشر صباحا كتبا تضم قصـــاصة ورق صغيرة فيها العنوان ورقم الشقة ، كما لو كنت قد سالتنى اياها لاحدى صديقاتك ! . . وعليك باحراق الورقة فى الحال . ويمكنك الحضور فى اى ساعة تشائين ، فســـوف اكون فى انتظارك طيلة بعد الظهر . ولن اغضب إذا لم تحضرى ، لأنى ساعلم ان عذرا طارئا قهريا عاقك عن الحضور . . .

● كان هذا الحوار يدور بينهما فى حجرة الاستقبال ، حين سمعا صوت عربة تقف بباب المنزل ، منبئة بعـــودة الزوج الفريد . . فهمست هيلين لصـــاحبها : « الوداع ياحبيبى ! » ثم تناولت كتابا وراحت تتظاهر بالقراءة فيه ! . . وإذا بالفريد يدخل الحجرة ويتقدم نحو زوجته . . فاحس ارمان وهو ينظر إليه بوخزات مؤلمة فى جنبيه ، لا لانه فى طريقه إلى خيـــانة صديق عرفه منذ الطفولة ، ولكن لرؤيته هيلين فى طريقها إلى خيانة هذا الرجل الطيب المطمئن الواثق . . !

ما اقبح انانية الرجل ! . . إنه يدفع المراة إلى السقوط ، ثم يحتقر ضـــحيته التى اغواها . . ولا يحتقر نفســـــه لانه اغواها ! !

قال الفريد وعلامات الضجر بادية عليه : « لقد قضيت سهرة ليس فيها شىء من المتعة ، فبماذا تعوضيننى يا هيلين؟ »

لكم كانت هيلين تود فى تلك اللحظة لو عـــرف الفـــريد الحقيقة ! . . ولو ان على بعـــد خُطوات منها هنـــاك سرير صغير تحيط به ستائر بيضاء تظلل طفلها الصـــغير البرىء : هنرى ! . . كيف يمكن ان تكون صورة هذا الطفل اضعف من ان تثنيها عن المضى فى هذا الطريق الوعر الاعوج ؟

سارت هيلين بخيلاء نحو زوجها فقدمت له جبينهـــا كى يقبله . . ثم اجابت على ملاحظته بقولهـــا : « هكذا الرجـــال دائمـــا . . لكى تؤدى واجبك نحوهم يجب ان تدفع لهم الثمن بلا إبطاء ... ! »

الفصل الثانى : الموعد الأول !

● كانت الساعة الحادية عشرة والنصف مساء عندما غادر ارمان دى كيرن منزل هيلين والفريد، الكائن بشارع لاروشفوكو. وكان الجو صافيا والسماء مرصعة بالنجوم ، فراى ان يقطع المسافة إلى بيته فى شارع لنكولن — بالشانزيليزيه — سائرا على قدميه ..

لقد كان اول لقاء له مع هيلين منذ اقل من عام . وكان قد ترامى إلى سمعه قبل ذلك شىء عنها من زميل ثالث اسمه « لوسيان ريوم » ، لم يتورع عن ان يتناول هيلين بلسانه مختلقا عنها الاكاذيب ، واصما إياها بأنها تخون زوجها مع رجل اسمه « دى فاراد » ، ومع كل عابر سبيل !

وكان سبب حقد لوسيان ريوم على هيلين انه حاول مغازلتها فنهرته وطردته ، الأمر الذى احفظ قلبه عليها فراح ينهش فى سيرتها كما تفعل ذوات المخلب والناب ! .. وكان فى ارمان ضعف غريب يجعله إذا سمع قدحا فى احد لا ينساه بعد ذلك قط ! .. فلما تقابل لاول مرة مع هيلين وزوجها بعد ذلك بعشرة اشهر فى باريس وثبت إلى ذهنه تلك الاكاذيب التى سمعها عن زوجة صديقه من ذلك الحقير المدعو لوسيان ريوم .. فراح يحدث نفسه : انه لا يزعم انه قد احب هيلين ، فقد كان به عجز مطلق عن الحب ! غير انها فاتنة ، وما دامت كذلك .. فلماذا يتورع ؟ إنها إن لم تكن له ، فستكون لغيره !

* * *

وفى الساعة العاشرة من صباح اليوم التالى سلم رسول إلى مدام شازيل حزمة صغيرة مرسلة إليها من « البارون دى كيرن » تحتوى على كتابين وخطاب .. وقرات هيلين الخطاب فاذا نصه كالآتى : « إذا كانت صديقتك القادمة من الريف قد قررت الحضور إلى باريس ، فان اصلح مسكن عثرت لها عليه هو شقة مؤثثة فى شارع استوكهلم رقم ١٦ .. فى الطابق الثانى ، إلى اليمين ! »

شعرت هيلين برعدة عند قراءتها هذه الاسطر ، وكانت خارجة لتوها من الحمام ، جالسة على مقعد فى غرفتها الخاصة — فقد صارت لها غرفة خاصة منذ بدات تحس بـ « تعذيب » من الرقاد فى فراش واحد مع رجل لا تحبه ! — وكان طفلها هنرى يلعب إلى جوارها فى براءة الملائكة ، وهى شاردة الفكر شبه مذهولة مما هى مقدمة عليه ! .. وبينما هى مستغرقة فى تفكيرها لا تكاد تعى شيئا مما حولها ، غير موعدها مع ارمان ، إذا بها تنتفض مذعورة ! .. فقد دخل زوجها الحجرة دون أن تشعر ، وفاجأها بقبلة على عنقها .. ثم قال لها مداعبا : « ياكسولة ! هل تعرفين كم الساعة الآن ؟ إنها الثانية عشرة إلا ربعا .. ماذا تقرئين ؟ روايات ؟ دائما روايات ! .. » ثم تناول الكتابين اللذين بعث بهما إليها « دى كيرن » واستطرد يقول : ولكنهما جديدان لم تفض صفحاتهما .. ! فيم اذن قضيت هذا الصباح ؟ !

— فى اعداد بعض الأوراق ومراجعة الحسابات ... هل لك ان تدق الجرس ياعزيزى ؟ انى اريد تمشيط شعرى واعداد نفسى للخروج فى خلال عشر دقائق ..

فسألها الزوج المسكين :

— هل بقائى إلى جوارك يضايقك ؟

— ليس كثيرا فى الوقت الحاضر !

.. وواصلت الزوجة زينتها امام المرآة ، بينما ظل الفريد واقفا بالقرب منها يقرأ صحيفة .. فكان حفيف ورقها كافيا لازعاج هيلين ، لمجرد أنه يذكرها بوجوده ! آه لو كان ارمان مكان الفريد فى تلك اللحظة ؟ ! اذن لاشركته معها فى زينتها ، فان هذا الاشراك بقدر ما يلذ لها فى حضرة من تحب ، بقدر ما هو بغيض إلى نفسها فى حضرة من تكره .. !

وكانما طال المقام بالفريد إلى جوارها ، حتى احست بالضجر فقالت فى عصبية مكتومة : « لست اعلم لماذا لم تحضر الخادمة التى دققت لها الجرس ! » .. ثم نهضت فدفعت بالفريد إلى خارج الغرفة واغلقت على نفسها الباب .. كى تبدل ثيابها !

ان الاحتشام عند المراة يبدأ دائما حيث ينتهى الحب .. !

* * *

وبعد قليل جمعتهما مائدة الغداء .. وكانت هيلين شاردة الفكر ، لاترى ولا تسمع شيئا ! .. فقال لها زوجها :

— انك لست فى حال عادية يا هيلين ؟ ماذا بك ؟ هل انت مريضة ؟

— انا ؟ ابدا ! بل اننى على النقيض احس اليوم بسرور وبهجة لم احسهما منذ زمن طويل !

اتراه يرتاب فى شىء ؟ .. فقد راح يسالها :

— ماذا تصنعين بعد ظهر اليوم ؟

وهنا صاح الطفل : « هل تأخذيننى معك يا اماه ؟ » فاجابته : « لا ! لا ياصغيرى » .. وتحاشت الجواب على سؤال زوجها ! .. بل عمدت إلى سؤاله : « هل الجو صحو اليوم ؟ » فاجابها بالايجاب، ثم قال : « تستطيعين ـ إذا اردت الخروج ـ ان تأخذى العربة » .. لكنها اجابته : « كلا ! اننى افضل السير على قدمى .. » .

* * *

اخيرا تنفست هيلين الصعداء ، عندما وجدت نفسها بمفردها ! بعد ان انصرف زوجها إلى عمله وخرج طفلها مع خادمته فى نزهته اليومية ..

إن الساعة لم تكد تجاوز الواحدة بعد الظهر .. ماذا لوفاجأت ارمان بالذهاب قبل الموعد الذى يتوقعه ؟ .. إنه فى مكان اللقاء منذ ساعة ، ولكنه لا ينتظر حضورها مبكرة ! ..

ولم تكد هذه الفكرة تمر بخاطرها حتى بدات تاخذ اهبتها للخروج ، فاسدلت على وجهها قناعا كثيفا واصلحت من زينتها ، ثم خرجت إلى شارع سان لازار فاستقلت عربة ، وهى بادية الاضطراب ، وقالت للحوذى :

— شارع ستوكهلم !

— اى رقم ياسيدتى ؟

— ساوقفك عند المنزل الذى اقصده ..

فلما دنا الحوذى من الرقم المقصود قالت له هيلين بصوت متهدج محتبس :

ــ هنـــا

وناولته قطعة نقـــود هى اضعاف اجره ! .. ثم سارت على الرصيف وهى تكاد تسقط من الرعدة التى تملكتها ، حتى وقفت امام المنزل رقم ١٦ .. وخيل إليهـــا وهى تدخله امـــام « البواب » ان قدميها لا تقويان على حملها .. !

هاهى الآن امام باب الشقة المقصودة ، وقد مالت إلى الامام لتلتقط انفاسها اللاهثة .. كان المنزل هادئا لا ضوضاء فيه ، فخيل إليها فى هذا الســـكون انها تكاد تســـمع دقات قلبها ! .. واخيرا، هاهى تضغط باصبعها على جرس الباب.. فاذا بوقع اقدام .. وصوت مفتاح يدور فى قفـــل .. وبـــاب يفتح .. وهاهو ذا ارمان !

وارتمت هيلين على صدره مضعضعة متخاذلة ، محتبسة الانفاس .. فتلقاها ارمان بين ذراعيه ، ثم قادها برفق إلى حجرة ذات اثاث ازرق ، فيها نار موقدة .. ولاحظت هيلين من اول وهلة انه ليس بالغرفـــة سرير للنوم ، فحمـــدت لارمان تداركه لهذا الأمر .. فقد وفر عليها بكياسته هـــذه صـــدمة قاتلة !

ومد ارمان يده فازال القناع من على وجهها ونزع القبعة من على راسها ، واجلسها على مقعد كبير قريب من النار .. ثم جثا على ركبتيه بجوارها وضمها إلى صدره بقـــوة كادت تحبس انفاسها ، وهو يقول :

ــ كم انا احبك لانك وفيت بوعدك .. !

ولكن ، فى تلك اللحظة المغمورة بالنشـــــوة يثب غول الشك إلى قلب ارمان .. فيرى فى وفاء هيلين بوعدها دليلا ، لا على حبها له ، بل على انها تعودت مثل هـــذه المغامرات من قبل ! .. وان ما تضمره له ليس حبا بقدر ماهو نزوة لارضاء مزاج عابر ! .. واخذ هاتف يهمس فى اذنيه : « لماذا تصر كل امراة تطارحك الهوى على انك اول رجل عرفتـــه ، وعلى انك حبها الأول ؟ »

ومد يده إلى خصلة الشعر المصففة المتدلية على جبينها فارخاها .. ثم قال لهـــا مستدركا : « لاتخافى .. لقد فكرت فى كل شىء » .. وقادها إلى منضدة معدة للزينة وجدت عليها كل ماقد تحتاج إليه للتزين ــ عند اللزوم ــ فقالت معلقـــة : « آه ، انك تخجلنى ! »

واطرقت براسها إلى الأرض .. فتنـــاول وجههـــا بين راحتيه ، ورفعه نحوه .. فالتقت اعينهما فى نظرة طويلة .. ساخنة ! .. لم تحس هيلين بعدها إلا وهى بين ذراعيه ، وهو يغمرها بقبلاته المجنونة .. ويهمس لها وشـــفتاه على اذنها :

ــ اواه يا هيلين ! .. اواه !

....

وانقضت ساعة، كان الشيطان خلالها قد اتم فعلته .. !

وسالت هيلين ارمان :

ــ هل انت سعيد ؟ ! اما انا فانظر .. كم انا سعيدة !

فاجابها :

— نعم ! كل السعادة !

لكنه كان كاذبا ! .. فقد كان الشك يلح عليه بانه ليس العاشق الأول لهيلين ، وانهـا عرفت قبله آخـرين ! .. واستسلامها المطلق له لم يكن فى نظره دليلا على حبها العارم له ، وانما دليلا على انها امراة مجردة من الضمير .. !

الفصل الثالث : بداية اليقظة !

● قضت هيلين الأمسية التى اعقبت ذلك النهـار وقد استبد بها شعور هو مزيج من الحنين والنشوة معا ! .. ولكن لمـاذا طلبت إلى ارمان ان لا يحضر إلى منزلهـا فى شـارع لاروشفوكو فى تلك الليلة ؟ لقد شعرت بانهـا لا يمكن ان تطيق رؤية الفم الذى كان يقول لها منذ ساعات قليلة ، وبين قبلتين متجاوبتين : « احبك » . لا تطيق رؤيته يقول لهـا فى حجـرة الاستقبال : « سيدتى » .. !

وكان زوجها جالسـا ليلتذ بجوارها وهو يتصفح احدى الصحف ، دون ان ينبس بكلمة .. لكنه فى الواقع كان يرصد حركاتها ! .. وكان منذ اتخذت هيلين لها مخدعا خاصا يحس بشوق إليها لا يقاوم ، وكانت احساسات الجسد الملحة مبعث الم شديد له ! .. فهم فى تلك الليلة ان يكاشفها برغبته المكبوتة وجوعه المكظوم ، فاذا بها تمضى — وقـد نسـيت وجـوده بجوارها — متجهة إلى غرفة نومهـا ! .. وحين استمهلهـا قدمت له « جبينها » ليقبله ، وهى تقول :

— إلى الغـد ..

— إلى الغد ؟ وماذا ايضا ؟

قالها وهو يحاول ان يقبل عينيها وماتحتهما .. لكنهـا دفعته عنها بقوة ، فقد رات فى عينى « زوجها » بريق الشهوة الجامحة ، والرغبة الجائعة .. وتمثلت أمامها فى تلك اللحظـة الشركة الجسدية بين «رجلين» ، وما فيها منقبح ودمامة ! .. فما ان رات زوجها يدنو منها وهو يقول فى توسل : « هيـلين ياحبيبتى ! » حتى وثبت إلى الطرفالآخر منالغرفة وهى تقول فى حدة : « الا ترى اننى متعبة الليلة ؟ انه الصـداع الذى لايفارقنى .. لو قضيت ليلة هادئة فان النوم قد يعيـدنى إلى حالتى الطبيعية .. إلى الغـد ! » .. ثم اومات إليه بيـدها وخرجت .. !

بقى الفريد بمفرده برهة .. ثم مضى إلى حجـرة نومه فى الطابق الأسفل وهو يفكر فى زوجته ، وما اعترى صـحتها من ضعف ! .. أما هى فقد صعدت إلى غرفتها واحكمت غلق بابها بالمفتاح — وسمع الفريد صـليل المفتـاح وهو يدور — وحدثت نفسها : « ابدا .. ابدا .. لن اكون لهـذا الرجـل بعد الآن ! » .. فى الوقت الذى كان فيـه المسـكين يهجس محدثا نفسه بدوره : « أتراها خائفة منى ؟ ! »

ما ابشع هذا الموقف الذى رات هيلين نفسها فيه ؟ ! إن المعاشرة الزوجية هى أساس الأسرة .. اما ضرورات المجتمع فهى الاستثناء .. فكيف تستطيع زوجة ان تحيـا تحت سقف واحد مع زوج هو زوجها امام الناس فقط ؟ !

كان عليها ان تجد حلا وتلتمس مخرجـا من هذا الموقف القبيح !

● وعنت لها فكرة شيطانية ، هى ان تذهب فى الغد بصحبة زوجها إلى طبيبها وتدخل بمفردها إلى غرفة الفحص ، متذرعة بذريعة ما ، كشعورها بعرض من اعراض المرض — اى مرض — ثم تخرج من الغرفة لتقول لزوجها إن الطبيب قد منعها منعا باتا من ان تكون لها اية علاقة بزوجها حتى تشفى تماما من مرضها !

ونفذت فكرتها بالفعل ، معتمدة على ان ثقة زوجها فيها وما طبع عليهمن حياء سيجعلانه بمنأى من الشك فيها ... ويطوحان به بعيدا عن السر الرهيب .. !

* * *

واخذت المواعيد تتوالى فى شارع ستوكهلم .. وبدات هيلين تولى هذا المكان عناية خاصة ، فقد كان مهد غرامها وعش هيامها ، فيه ولد حبها وهاهو ذا يحبو الآن على قدميه .. ومن ثم توفرت على تنسيقه وتجميله ، وترتيبأثاثه ، وستائره ، ووضع الغلائل الرقيقة على نوافذه ...

وذات يوم ، وبينما كانت هيلين مع ارمان فى عشهما الآمن .. تطايرت امام ناظريها اول شرارة منبئة باندلاع نار آكلة .. ففى لحظة من لحظات السعادة التى غلفت قلب هيلين وهى متكئة على صدر ارمان ، قالت له : « كم اود ان يكون لى طفل منك ! له عيناك .. وفمك ؟ كم ساحب هذا الطفل واشغف به ! ؟ »

فكان رده عليها : « إننى لا اتمنى ! لاننى ساحزن عندما اراه يقبل انسانا آخر غيرى على انه ابوه .. ! »

— إن هذا لن يحدث !

— بل لابد من حدوثه !

— سوف اغادر هذه البلدة إلى غيرها معك ، حيث ابقى بجوارك إلى الابد .. وساكون مرغمة على ذلك ، إذ كيف سيكون مسلك الفريد معى حين يتحقق من اننى لن اكون له ابدا بعد الآن ؟ !

وفيما كانت هيلين تتفوه بهذه العبارات ، كان ارمان يدقق النظر إليها وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة .. محدثا نفسه : « إنهن جميعا سواء .. فكل امراة تخون زوجها تقول لعشيقها انها امتنعت عن معاشرة زوجها .. ! »

واستطردت هيلين : « الست واثقا من اننى لن استطيع ان اكون لرجلين فى وقت واحد ؟ ! قل انك واثق فى من هذه الناحية .. انى اقسم اننى منذ اصبحت لك لم امكن زوجى من الاقتراب منى قط ! »

فاجاب الماكر : « انا لست غيورا .. إننى اعلم انك تحبيننى ! »

— بل قل انك لا تشعر بالغيرة لانك واثق من اننى لن اكون إلا لك وحدك !

— إذا اردت ..

قالها بضجر ظاهر ، فقد كان يكره مجرد تصور فكرة فرارها معه ، والمأساة التى لابد تنجم عن ذلك الفرار .. بينما تمتمت هيلين لنفسها : « إنه لا يثق فى ! انه لا يثق فى ! »

* * *

فى تلك الليلة احست هيلين عند عودتها إلى منزلها بحزن عميق .. فلزمت حجرتها واغلقت بابها عليها ، واخذت تبكى بكاء مرا ! .. لقد بدات ترى الفارق الجسيم بين حبها لأرمان وحبه هو لها .. وبدات ترى نفسها وهى تهوى من قمة السعادة إلى هاوية ليس لها قرار !

ولم تكن هذه هى الطعنة الوحيدة التى تلقتها هيلين من عشيقها .. فقد حدث ان تلاقيا ذات صباح فى حديقة النباتات ، حيث كان يطيب لهيلين التنزه وسط الأشجار الباسقة والزهور اليانعة .. وفيما هما يتسكعان اخذت هيلين تروى لأرمان ما ترامى إلى سمعها اخيرا عن زوجة احد زملاء الفريد ، وكيف ان زوجها قد طردها من بيته بعد ان اكتشف انها كانت تخونه مع عشيقين فى وقت واحد ! .. فاذا بأرمان يعلق على هذه الرواية ، وعلى مسلك تلك الزوجة ، بقوله : « ان غيرها من الزوجات يتخذن العشيقين واحدا بعد الآخر .. والفارق على كل حال بسيط ! »

ماذا يعنى ارمان ؟ ! لقد همت هيلين أن تساله : « وانا ؟ ماذا تظن فى ؟ هل تظن اننى احببت قبلك ، وانني ساحب بعدك ؟ » غير أن الكلمات يبست على شفتيها .. !

● وتعاقبت المواعيد فى شارع استوكهلم .. ولم يكن من العسير على هيلين ان تدرك ان عشيقها لم يعد الرجل الذى عرفته فى بادىء الأمر ! .. فان قبلاته قد فترت ، والقوة التى كان يضمها بها إلى صدره ، قد وهنت .. وبدا الغطاء ينكشف عن ارمان رويدا رويدا ، وتبين حقيقته كالحة بشعة

امام عينى هيلين ! .. صار الشك ينتابه فى كل ما يصدر من عشيقته من حركات واقوال .. وإذا بالماسة التى ظنتها هيلين جوهرة لا تقدر بمال ، تتكشف لها زائفة ! .. والقلب الذى حسبته عامرا بالحب والثقة ، يبدو فارغا خاويا كالبيت المهجور ! .. كان حالها اشبه بالسجين الذى غفت عيناه برهة فى سجنه فجاء آسروه وشدوا وثاقه وهو نائم إلى جثة رجل ميت ! .. فاستيقظ ليرى نفسه فى صحبة هذا الرفيق البشع المفزع الرهيب !

الفصل الرابع : آلام رجل شريف

● بالرغم من سذاجة الفريد وعدم تمرسه بحياة المدن ، وبالرغم من انه كان يقيس كل شىء فى الحياة قياسا حسابيا هندسيا يتمشى مع مهنته ، فانه بدا يشعر بأن ماساة غامضة اخذت تحيط به من كل جانب وتنعقد اطرافها فى بيته فتضيق الخناق عليه !

ماذا الم بهيلين ياترى ؟ انه قد بدا يعتقد انها مريضة حقا ، فقد كان من العسير عليه أن يفرض حدوث امر آخر ! .. كان ايسر عليه ان يتهمها بالسرقة والتزوير من ان يتهمها بالخيانة، ولا سيما بخيانته مع ارمان ، صديقه وزميل صباه ..!

وبالرغم من ولع الفريد بزوجته وغرامه بها فانه منذ زيارته معها للطبيب ، تلك الزيارة التى عرف بعدها منها ان الطبيب قد نهاها عن معاشرته حتى تشفى ، عول على ان يضحى براحته ومتعته مادامت صحة هيلين تتطلب ذلك . وكان من الحياء والكياسة بحيث لم يطلب من زوجته

اية تفاصيل عن مرضها والعلاج الذى أوصاها به الطبيب ، فقد انتظرها خارج حجرة الفحص وادلت هى إليه بقرار الطبيب فتقبله عن طيب خاطر !

ولما كانت هيلين قد اعادت عليه رغبتها فى الذهاب إلى الطبيب مرة ثانية ، إمعانا منها فى التذرع بمرضها لتظل بعيدة عن معاشرته ... فقد عن لألفريد ان يذهب لمقابلة ذلك الطبيب بمفرده دون ان يستصحب معه زوجته . ونفذ فكرته بالفعل فتوجه إليه بعد ظهر احد الأيام ... وما ان استقر على المقعد امامه حتى ابتدره الطبيب متسائلا :

— كيف حال مدام شازيل ؟

— لقد جئت اليوم لاستشارتك بشأنها هى بالذات !

— لماذا لم تحضر معك ؟

— انها لا تعلم اننى قادم لزيارتك .. والواقع ان حالتها تقلقنى كثيرا ، فانت تعلم حالة الانهيار العصبى الذى تعانيه ..

كان الطبيب يصغى إلى شازيل دون ان ترتسم على وجهه اية علامة تنم عما يدور فى ذهنه ، فقد كان بحكم مهنته مؤتمنا على اسرار الناس . وكان الفريد شازيل يدقق النظر بدوره فى الدكتور « لوفيه » وقد استبد به إحساس عجيب : هو ان سرا ما يكتنف زوجته ، وان مفتاح هذا السر هنا .. فى يد هذا الطبيب !

وقال الدكتور لوفيه ردا على استفسار الفريد :

— هذا صحيح ، فعندما شرفتنى مدام شازيل بزيارتها

فى المرة الأخيرة تبين لى بعد فحصها انها مصابة باضطراب فى الأعصاب ...

— هل لم يكن فى حالتها الصحية والعصبية شىء له علاقة بزوجها ؟

— لاشىء على الاطلاق .. سوى واجبه فى ان يدلل زوجته ويتجنب تكدير خاطرها بقدر ما يستطيع ...

احس شازيل فى تلك اللحظة بأن قلبه يكاد يتوقف عن الخفقان ! .. وحين غادر عيادة الطبيب كان يحدث نفسه : « لقد كذبت على هيلين ! .. فلم يكن الطبيب هو الذى نصحها بأن تعيش منفصلة عنى .. وإنما هى تستبشعنى ! .. رباه ، ماذا صنعت لها ؟ ! »

وعول على عدم مصارحتها بشىء ، وعلى مراقبتها فى الوقت نفسه ! .. وقد اضطره تعاقب الحوادث إلى ان يقارن رفع الكلفة الذى كان يتمتع به ارمان فى بيته ، بما كان يستشعره هو من كلفة وحرج فى البيت الذى هو بيته ، وإلى جوار الزوجة التى هى زوجته ! .. وبدأ يضيق بزيارات ارمان لمنزله وكثرة تردده عليه ، فقد بدأ يلاحظ ان ارمان امسى صديق زوجته اكثر مما هو صديقه ! .. وبهذا بدات آلام هذا الرجل الساذج الطيب الشريف ..

ولم يكن من السهل على الفريد ان يواجه هيلين بشكوكه فيها وفى ارمان ! فقد يكون صديقه معجبا بزوجته ، وقد تكون زوجته معجبة بصديقه ، ولكن هل انحطت القيم

الإنسانية إلى الحد الذى لا يمكن معه ان تقوم صـــداقة نزيهة عفيفة بين رجل وامراة ؟

● وبعد ظهر احد الأيام كان الفريد قادما من محطة « سان أورليان » ، فعن له ان يعرج على حديقة النباتات ليروح عن نفسه قليلا مما يرزح تحته من احمال ثقيلة ... وبينما هـــو يسير على مهل فى احد ممرات الحديقة الجميـلة إذا به يلمح امامه امراة تسير إلى جانب رجل ...

وكانت المراة هى هيلين .. وكان الرجل هو ارمان ! .. كانا يسيران مستغرقين فى الحديث جنبـا إلى جنب فى براءة ظاهرة .. ومع ذلك فقد انتفض الفريد عنـد رؤيتهمـا ! .. ولكن ماذا فى هذه النزهة مما يبعث على الالم ، او الشــكوك ؟ وهل يعقل إذا بيت رجل وامراة النيـة على ارتكاب موبقة ، انهما يحضران إلى مكان كهذا المكان لارتكابها ؟

احسن شازيل بأن قدميه لا تقويان على حمله ، فارتمى على احد المقاعد متهالكا .. لم يشأ ان يفاجئهما لئلا يظنا انه كان يراقبهما او يتعقبهما ! .. وإنما عول على الانتظار حتى يعود إلى بيته ، فاذا اخبرته هيلين بامر هذه النزهة مع ارمان فلن يكون هناك مجال للشك .. !

وإلا ؟ !

● واقبل الليل والفريد ما يزال يجوب شوارع المدينة ، ليهدىء من أعصابه بالسير على قدميه .. واخيرا عـاد إلى منزله فصعد إلى غرفة زوجته مباشرة ودق بابها برفق ...

فأجابته : « ادخل » .. وحين رأته ابتدرته قائلة : « من اين انت قادم متاخرا هكذا ؟ » .

ـ كنت أسير فى الخلاء ، فقد احسست باجهاد ووعكة . وانت ، اين كنت ؟

ـ خرجت لقضاء بعض المهام ...

انعقد لسان الفريد ، فلم يجرؤ أن يقول لهـا انهـا تكذب ! .. وانقضت الامسية دون ان تشير هيلين إلى نزهتها مع ارمان بكلمة ! .. حتى اقبل هذا ليقضى السهرة كعادته ، فما رآته حتى ابتدرته بقولها : « كيف حالك منذ أمس ؟ ! »

يالها من مخاتلة ؟ كانها لم تره منذ امس .. ؟ !

ولكن لمـاذا يعقد الالم لسانه ؟ ان الكلام فى تلك اللحظة المشئومة كان اكثر مما يطيـق ! .. فاكتفى بمراقبـة ارمان وهيلين وهما يتبادلان أطراف الحديث .. وقد اخذت الشبهات الملثمة والشكوك المبهمة تستقر فى احشائه كنصل مسموم .. !

الفصل الخامس : الزوج والعشيق !

● وحين حيا الفريد زوجته تحية المساء وذهب إلى غرفة مكتبه .. كانت هذه الشكوك والأوهام تتقاذفه يمنـة ويسرة بلا رحمة ! .. ان زوجته كاذبة ـ مافى ذلك ريب ! ـ فقد اخفت عنه خبر نزهتها مع ارمان فى حديقة النباتات ! .. ترى ما هى علاقتها بارمان على وجه التحديد ؟ قد يكونا متحابين . غير ان الفريد لا يستطيع ان يسمح لنفسه بمجرد الشـك فى ان حب هيلين لأرمان قد يدفعها إلى التفريط فى عرضها .. !

عليـــه إذن ان يعمـــل بروية وتؤدة ؟ فماذا يعمل ؟ هل يخلى لهما الطريق ؟ وابنـــه هنرى ؟ أيتركه لأمه ، أم ينتزعه منها فيحرمه بذلك من حنان الأمومة ؟ إن عليه ان يفعل شيئا ، ولكن ماهو هذا الشيء ؟ هل يطالب هيلين بتفسير تصرفاتها ؟ ولكن هل ستعدم الماكرة وسيلة للكذب عليه مرة اخـــرى ؟ إن الفضائل لا تتجزا ، فمن يكذب مرة يكذب الف مرة !

وخطرت له فكرة : لماذا لا يستوضح ارمان الحقيقة ؟؟ إن ارمان لم يكذب عليه — حتى الآن على الاقل ! — فاذا ذهب إليه واستوضحه جلية الأمر ، وظهرت له براءته ، فان السر سيظل على الأقل مطويا بينهما فلا تعـــلم به هيلين .. اما إذا كانت شكوكه قائمة على اساس ، فانه يفضل أن يسمع الحقيقة المفجعة من ارمان .. ولا يسمعها من هيلين !

واختمرت الفكرة فى عقل الفريد ، واخذ يقلبها على كل وجوهها ، ليتبين اوجه الخطأ فيها واوجه الصـــواب .. حتى غلبه النعاس فنام . فلما استيقظ فى الصباح عقد العزم على تنفيذ فكرته دون إبطاء ، فما وافت الساعة التاسعة حتى كان فى حجرة الاستقبال فى منزل ارمان الكائن فى شارع لنكولن .

كان ارمان وقتئذ فى الحمام ، فانتظـــره الفريد فى تلك الحجرة التى كانت كل قطعة من اثاثها تذكره بماضيـــه مع صديقه ، وصباهما الذى قضياه معا .. وبينما هو مســـتغرق فى تفكيره إذا بيد تلمس كتفه ، فأفاق من شروده ليجد نفســـه وجها لوجـــه امام ارمان .. وكان أول ما صدم الفريد رائحة العطر التى تفوح من صديقه .. فقد كان نفس العطـــر الذى تضعه هيلين !

وأختمرت الفكرة فى عقل ألفريد ، وأخذ يقلبها
على كل وجوهها ، ليتبين أوجه الخطأ فيها وأوجه الصواب ..

انهما يضمان عطرا واحدا ! الا يكفى هذا لدعم شكوكه ؟

• وبدا ارمان يتناول إفطاره ، فابتدره الفريد متسائلا :

ـــ الا يدهشك ان ترانى فى منزلك فى هذه الساعة المبكرة ؟

ـــ اظن انك قادم فى مهمة . فاذا صح ظنى فانا فى خدمتك .

ـــ نعم لقد جئتك فى مهمة ! انت صديقى .. ولانك صديقى اتيت إليك اليوم . انك ترى امامك يا ارمان اتعس رجل فى العالم ! .. إننى سابوح لك باشياء لا يصح البوح بها .. فيجب عليك ان تصغى إلى : اننى تعس جدا يا صديقى وتتلخص تعاستى فى كلمتين : إننى احب زوجتى ، لكن زوجتى لا تحبنى ! .. وانا احبها حبا لا نهاية ولا وصف له ، فقد وجدت فى هيلين تلك الصورة التى كنت اتخيلها فى صباى ويرسمها خيالى فى طفولتى ... فلما تزوجتها احسست بأنها لم تكن سعيدة فى السنين الأولى من زواجنا ، فكنت أمنى النفس بأن الزمن سيصلح كل شىء .. غير ان الزمن لم يصلح شيئا ! ومنذ ان قدمنا إلى باريس بدات الحظ عليها انها فى حال اتعس مما كانت عليه من قبل .. فالحزن لا يفتأ يغمر وجهها الجميل ، وعيناها اصبحتا غائرتين .. انها تتالم وتذوى امامى يوما بعد يوم وانا لا استطيع لها شيئا ، ولااعرف لعذابها سببا ! .. إن المراة التى احبها تفنى ساعة بعد ساعة وانا قريب منها لا استطيع أن امنع وقوع الكارثة ! .. إن عمق آلامى ليس له حد .. إننى اتخبط ! لماذا ابوح لك بكل هذه

الأمور ؟ ! لقد جئت لأسالك عما إذآ كنت تعلم شيئا عن حالتها .. !

ثم وقف الفريد ، فوقف ارمان فى مواجهته واجابه :

ـــ ولكن كيف تنتظر منى أن اعرف عنها اكثر مما تعرف أنت ؟

ـــ ارمان ! لا تكذب على ! لقد اتخذت عدتى لسماع الحقيقة مهما كانت مرارتها .. فاذا كانت هيلين تحب إنسانا آخر فاننى مستعد لأن اخلى لها الطريق .. سآخذ ابنى وادعها تعيد بناء حياتها من جديد ، فانا احتقر الزوج المنتقم ! فاجبنى بربك يا ارمان : هل تحب هيلين رجلا آخر ؟

ـــ إننى اكرر عليك القول مرة اخرى : كيف يتسنى لى ان اعرف ذلك ؟

فصاح الفريد وهو يضغط على ذراع صديقه بشدة :

ـــ كيف ؟ من يعرف إذن إذا كنت انت لا تعرف ؟ ! اتحسبنى اعمى إلى الحد الذى لا ارى فيه كيف اصبحت صفيها وموضع سرها ؟ فاذا كنت لم تتغلغل فى حياتها وعواطفها فماذا عساكما تقولان فى احاديثكما التى لا تنتهى ؟ انكما لا تكفان عن الكلام إلا عندما تريانى ! لماذا تتخفيان عنى ؟

ـــ نتخفى عنك ؟ ؟

ـــ صه ، لا تكذب ! .. فاننى لم اعد استطيع احتمال الكذب ! وإنما انا اريد معرفة الحقيقة كيفما كانت هذه الحقيقة .. لقد رايتكما امس فى حديقة النباتات ـــ فقد

كنت انا هناك ! — فلما راتك هيلين فى المساء تعمدت ان تقول لك « كيف حـــالك منــذ امس » ، كما لو كانت لم ترك منذ امس ! .. والآن اجبنى : لماذا تكذبان على انتما الاثنان ؟

— الحق معك يا الفريد .. ! فقد كان واجبا ان نخبرك بنبأ هذه النزهة فى الحال ، حتى لا تتخذ الأمور البريئة مظهرا يثير الريب . والذى حدث ان مدام شــــازيل كانت عائدة من زيارة احدى الأسر الفقيرة عندما قابلتها مصادفة فى الحديقـــة فقضينا معا وقتا قصيرا ، سيما وقد كان الجو صحوا . وقـــد طلبت منى زوجتك الا اقول لك عن هذه النزهة شيئا لأنهـــا خشيت ان تؤنبها لانها تعلم انك لا تحب ان تراها تذهب إلى الحدائق العامة . ولك ان تتحقق من صدق ما اقول بأن تذهب فى الحال إلى منزلك حيث تسال مدام شازيل السؤال بعينـــه قبل ان تعطينى فرصة الاتصال بها وسترى انها ســـتجيبك بنفس الجواب .. !

يا لهمـــا من ماكرين مخاتلين ؟ لقـــد كانا فى كل مـــرة يلتقيان فيها يتفقان على جواب واحـــد يفسران به الامر إذا حدث ان فوجئا بمن يراهما معا ! .. وكان جواب ارمان على الفريد متفقا عليه من قبل بينه وبين هيلين !

لكن الفريد اجابه فى حدة :

— ماذا تحسبنى يا ارمان ؟ لست انا الذى يتجسس على زوجته ! .. يكفينى ما احس به الآن من خجل وانا اوجه إليك هذا الحديث . فاقســـم لى بشرفك انك ومدام شازيل لا يحب احدكما الآخر !

— انا ومدام شازيل ؟ اننى اقسم لك بشرفى بانه لم تجر بينى وبين مدام شازيل كلمة واحدة خارجة عن نطاق الصداقة المنزهة الشريفة .. واننى انا الذى اســـالك بدورى : مـــاذا تحسبنى يا الفريد ؟

فاجاب الزوج الساذج التعس :

— انى اسالك المعذرة يا ارمان لاننى شككت فيكما ... وارجو ان لا اكون قد اسات إليك . فقد كان يصعب على دائما ان اصدق انكما تستطيعان ارتكاب هذه الفعلة ، فانا احترمكما انت وهيلين .. ولكنى ظننت انها قد تكون اغرمت بك ، وانت بها .. إنها سيدة فاتنة جذابة كما ترى ، وفيك انت يا ارمان الكثير من الصفات التى تنقصنى انا : فانت جميل ، انيـــق ، ذكى .. واما انا فليس لى الا .. هذا !

وبحركة حزينة متثاقلة اشار إلى قلبه ! .. واســـتطرد يقول :

— كم كانت تعاســـتى ستكون قاتلة لو ان شـــكوكى تحققت ؟ .. فاننى كنت سافقدكما معا ، انت وهى ، فافقـــد بذلك الحب والصداقة جميعا ، والفهما فى كفن واحـــد ! .. ولا شك ان هول الصدمة كان سيقتلنى .. !

— هدىء من روعك ...

— بل انى هادىء .. لقـــد كنت عطوفا على يا ارمان ، فقد اصغيت إلى بقلبك ، واحسرتاه ! لماذا لا استطيع ان ابوح لهيلين بمكنون صدرى كما فعلت معك الآن ؟ .. إننى دائمـــا اشعر وانا معها بضيق وحرج !

ـ انت تبالغ يا الفريد .. ان مدام شازيل ليست فى حالة طيبة ، ولعل ذلك راجع إلى التغير الذى طـرا على حياتها : فهواء باريس وعــادات باريس واهــل باريس .. كل ذلك يضايقها ويثير اعصابها ، فهى فى حاجة إلى عناية كبرى ... فتجنب المناقشات المثيرة معها وكن رقيقا نحوها ، رفيقا بها ..

ـ الحق معك يا ارمان ! اننى رجل انانى ، لا احس إلا بآلامى فقط ! .. غير ان هيلين تثق فيك ـ وها انت ترى اننى لم اعد اشعر بالغيرة من ذلك ـ فحدثها عنى .. وقل لها كم انا احبها ، وإلى اى حد اعنى بسعادتها .. قل لهــا هذا فهى ستصدقك .. وانى لمستعد لأن ادفع حياتى ثمنا لنظرة حنان منها .. إلى !

الفصل السادس : العشيق والعشيقة !

● خرج الفريد من منزل ارمان وتركه وحيــدا فى حجرة الاستقبال ، فاحس ارمان بالآلام الهائلة التى سببتها له زيارة صديقه ! .. وكان عليه ان يقابل هيلين فى نفس اليوم ، لكنه آثر ان يتحلل من موعده بعذر من الأعذار .. لماذا رجت زيارة الفريد نفسههذه الرجة العنيفة ؟ لقد غمره الخزى من فعلته الشنعاء ، وكانما ادرك فجاة كيف انه باتخاذه زوجة صديقه عشيقة له داس بقدميه على مقدسات الطفــولة ، ودنس بالوحل محرابا طهره الوفاء .. !

ولاجل من خان ارمان صديقه ؟ لأجــل هيلين ! .. ومن اجلها ضحى بذكريات طفولته وصباه .. ومن اجلهــا اقسم

بشرفه كاذبا منذ برهة ! .. فاين المهــــرب من كل هـــــذه الحقارات ؟

لقد اصبح من المستحيل عليه بعد الذى حدث من الفريد ان يستمر على صلته بهذه المراة : يجب فصم هذه العــروة ووقف هذه العلاقة الزائفة فى الحال ! .. فان الاســتمرار فى خيانة صديقه صار بعد الآن امرا لا يطاق . يضاف إلى هــذا أن الزوج الذى بدا يتشكك فى زوجته لن يكف عن مراقبتها .. وقد يراقبها وينجح فى ضبطها بحيلة او باخــرى .. فتقــع الكارثة !

وإذن .. ؟ !

تناول أرمان ورقة وقلما وكتب ثلاثة اســطر إلى هيلين يطلب منها فيها موعدا . ولكن اين يقابلها ؟ ان خير مكان هو مسكنه « الشرعى » المعروف فى شارع لنكولن . وان فى وجود الخادم بالمنزل لعاصما من الزلل ... والعثرات !

* * *

كانت الساعة جاوزت الثانية والنصف بعــد ظهـــر اليوم التالى عندما حضرت هيلين شازيل إلى مسكن ارمان فى شارع لنكولن ، بناء على الموعد الذى حدده معها ، فدخلت إلى حجرة الاستقبال وقد اسدلت على وجههــا قناعا كثيفا حتى لا تتعرض لفضول الخادم ! .. وكانت هيلين لم تقابل ارمان منذ يومين ـ حسبتهما دهرا لفرط شوقها إليه ! ـ فكانت نظرة واحدة إلى وجهها الذى ارتسمت عليه علامات الحب والوله

بارمان ، كافية لأن تجعله يدرك مقدما هول الصدمة التى ستصاب بها عندما يكاشفها بما قر رأيه عليه .. !

اجلسها ارمان على مقعد وثير .. وكان التحفظ باديا عليه .. ثم اخذ يقص عليها ما جرى بينه وبين الفريد فى اليوم السابق ، دون ان يخفى عنها شيئا ! ..

وعندما انتهى من كلامه سألها : « ماذا قال لك زوجك فى المساء ؟ » .. فأجابت : « لاشىء .. وانت، ماذا قلت له ؟ » فأجاب : « لو كنت وحدى فى الميدان لما اجترأت على خداع هذا القلب الكبير الذى حطمته بيدى .. غير ان الامر كان متعلقا بك ، فاضطررت لأن اقسم له بشرفى بانه لم يكن بينى وبينك ادنى علاقة تخرج عن نطاق الصداقة الشريفة التى تسمو على كل شبهة .. ولما لم نكن ، انا وهو ، قد تعودنا أن يكذب احدنا على الآخر .. فقد صدقنى ، وهدأ روعه بعد ذلك ! »

كانت هيلين تصغى إليه وهى تتفرس فى وجهه ، بينما كان هو يتطلع إلى النار المشتعلة ليتحاشى أن تلتقى عيناها بعينيه ! .. ثم أردف :

ـ نعم ! لقد هدأ روعه .. ولكن إلى حين ؟ ! وعليه فان علاقتنا اصبحت تكتنفها بعض الصعوبات .. فهل انا على حق؟

ـ هذا ممكن ! أنك اكثر منى دراية بهذه الأمور ... فعلام عولت اذن ؟

ـ عدينى بأن لاتسيئى فهم ما سأقوله لك .. وثقى أننى لا اتوخى فى كل تصرفاتى غير مصلحتك ! .. علينا اذن ان نكف عن اللقاء فترة من الوقت حتى تتبدد شكوك الفريد ويهدأ

روعه .. ولتكن هذه الفترة خمسة اشهر او ستة ولا اكثر .. وسأسهل عليك هذه المهمة بأن اغادر باريس ـ بالرغم مما يسببه لى السفر من مضايقة الآن ـ فان راحتك هى عندى اولى من كل شىء !

ـ ابمثل هذا الهدوء تنبئنى بهذا الخبر ؟ ! وإذا تبين لك بعد خمسة او ستة اشهر انك لم تعد تحبنى .. ماذا يكون مصيرى ؟ .. وماذا يتبقى لى من الحياة ؟

ـ لا تنسى أن الأمر يتعلق بزوجك ، الذى بدأت عقارب الغيرة تدب إلى قلبه .. كما يتعلق بالمحافظة على أمانك العائلى من الأخطار التى أراها محدقة بك !

ـ ان عندى اقتراحا اعرضه عليك يا ارمان : ماذا لو اخذتنى معك ؟ ! إننى افضل ان افقد كل شىء وابقى عليك !

ـ إنك تعرفين اكثر منى اننى لا استطيع ذلك .. وتعرفين لماذا لا استطيعه .. فقد يقدم رجل على انتزاع زوجة من زوجها ، أما أن ينتزع أما من ولدها .. فهذا شنيع !

ـ لماذا لاتصارحنى بأنك لم تعد تحبنى .. لماذا كل هذا الكلام المنمق وكل هذه الأكاذيب؟ اتحسبنى لا اقوى على مواجهة الحقائق، مهما كانت ؟ قل انك لم تعد تحبنى يا ارمان .. فاننى سأفهمك ، ولن احقد عليك ، بل سأمضى إلى حال سبيلى مستصحبة آلامى ودموعى .. ولكن لا تتركنى فريسة للشكوك ، ولا تتحدث عن رحيلك بمثل هذا الفتور وقلة الاكتراث ... يا الهى ، كم انا اتعذب !

قالت هذا وانفجرت الدموع من مآقيها كالغيث الهتون ، فأجاب ارمان فى غضب :

— لست افهم ماذا يبكيك فيما اقول ؟ ! .. انك تكرهيننى على ان احدثك فى صراحة : إن هذا الانفصال الذى اطلبه ليس من اجلك فقط ياهيلين بل من اجلى انا ايضا ، فان بيننا اليوم حاجزا لا يستطيع رجل شريف ان يتخطاه !

— اى حاجز هذا ؟

— هو الثقة المطلقة التى وضعها فى شخصى رجل آخر .. إن الفريد عندما جاء إلى لم يحدثنى عن غيرته .. بل حدثنى عن تقديره لى ، وصداقته ، وتعلقه بى ! لقد شك فى فجاء إلى بقلب مفتوح لا ينطوى على حقد ، جاءنى يحمل فى طوايا نفسه عواطف نبيلة تنم عن استقامة خلق واخلاص شفاف .. لا ياهيلين ! إننى لن اقوى على خيانة هذا الرجل بعد الآن لاننى إن فعلت فسأستشعر فى نفسى خسة وحقارة ليس لهما حد !

— وانا ؟ الم اطأ بقدمى كل هذه الاعتبارات لآتى اليك ؟ او تعتقد اننى خلقت للخيانة والكذب ؟ وهل ترددت انت لحظة واحدة فى ان تطلب منى ان اخون هذا الرجل الطيب الواثق عندما احسست بالرغبة فى امتلاكى ؟ ! .. وهل لك الحق فى ان تحتكر الخجل لنفسك ، فلا يكون لى انا فى هذا الخجل نصيب ؟ ! إننى امنعك من التشدق بكلمات الشرف وخيانة الصداقة ، لانه ليس لك حق فى الكلام عنهما .. فانت — هل تسمعنى ؟ — انت الذى يقع عليك عبء هذه الأوزار ، لانك دفعتنى إلى هذه الهاوية والقيت بى فى هذا الحضيض .. !

— إننى اسالك المغفرة ... ولكن فلنواجه الوقائع : لقد احب كل منا الآخر ، ولم تكونى طفلة غريرة — فيما اعلم ! — ولا كنت انا فتى غريرا مراهقا . بل كان لكل منا تجاريبه فى الحياة .. اليس هذا صحيحا ؟ لقد كان كلانا يعرف ما يفعل .. ولما كنت اشعر بانى مسئول عن سمعتك ، فاننى لم اتحدث عنك امام مخلوق حى ... ولما كنت اشعر كذلك بمسئوليتى عن راحتك التى اقلقتها وهززت قواعدها ، فقد عولت على الاختفاء ! .. اما عن ضميرى فاسمحى لى بأن اكون وحدى الحكم فيما يامرنى به او ينهانى عنه .. !

— وبعد ستة اشهر ؟ هل بسيستريح ضميرك ؟ لنكن صرحاء ، ومنطقيين : أن ما تسعى إليه ليس انفصالا مؤقتا بل هو فصم لعروة حبنا وقطيعة ابدية ! .. فلماذا لا تقلها كلمة صريحة لا لبس فيها مادمت تحرص على ان يحترمك الناس ؟

فاجاب ارمان فى قسوة :

— نعم ! هو انفصال ابدى !

— وبهذا تظن انك ابرات ذمتك قبلى من كل واجب ؟ .. انك تتركنى هكذا وحيدة وتسافر فتكتب إلى بضع خطابات ثم تكف عن الكتابة بعد ذلك وانت راض عن نفسك .. « فقد كان كلانا يعلم ما يفعل ، وانا لم اكن طفلة غريرة .. بل كان لكل منا تجاريبه فى الحياة ! » انه ليشبع فضولى ان اعلم ماذا تعنى بالضبط بهذه العبارات ؟

— وما جدوى ذلك ؟

ـ احب أن اعرف ، فان من حقى أن اتبين رايك فى على الأقل !

ـ إنك تدفعيننى إلى التفوه بعبارات قد تاسفين على سماعها .. اجيبينى اذن : هل تظنين اننى اجهل حياتك .. وماضيك ؟

فصاحت هيلين مذعورة :

ـ حياتى ؟ ماضى ؟ !

ـ هل تريدين أن اذكر لك بعض الوقائع ؟ .. اليك اذن شيئا منها : هل نسيت علاقتك بالمسيو غاراد ؟

ـ المسيو غاراد ؟ ما أحقر هذا الاختلاق ! قل انك لا تصدق فى هذا .. اننى اضرع اليك ان تقول لى انك لم تكن تصدق فى هذا .. قل ! قل ! قل !

ـ بل لقد صدقته !

ـ إذا كنت قد صدقت هذه المفتريات فلماذا لم تصارحنى بها ؟ لماذا لم تصارحنى بهذه الشكوك عندما طلبت منى أن اكون لك ؟ هل رايتنى ارتكب هذه الفعلة مع غيرك حتى تصدق ما سمعت ؟ اليس من العدل ان تعطينى فرصة واحدة للدفاع عن نفسى وتكذيب هذه الشناعات ؟ الا تعلم فداحة الجرم الذى تقترفه عندما تستحوذ على قلب المراة كله بينما أنت تحمل فى نفسك نحوها مثل هذه الشكوك ؟

ـ إنى كنت سائر سخريتك منى لو لم أصبح عشيقك ، وعليه فقد كنته ! .. واعود فاكرر انه ليس هناك ما يؤخذ على

احدنا فيما حدث . إن ماضيك يعنيك وحدك ولم يكن من حقى ان احاسبك عليه ، كما انه ليس من حقى أن احاسبك على مستقبلك بعد الآن .. اما عن حاضرك فاننى اعرفه جيدا ، واعرف انك لست المراة التى تعلق عاشقين على المشنقة فى وقت واحد .. !

ـ ان هذا لهو الشرف بعينه ..

قالتها هيلين وهى تحس بتقزز واشمئزاز من الرجل الذى احبته ، ثم اردفت وهى تنتفض واقفة وتتاهب للانصراف: « الوداع ! » فأجابها فى اقتضاب : « الوداع !! .. » وخرجت من الغرفة وهو يرافقها إلى الباب دون أن ينبس احدهما ببنت شفة ! .. وما ان اغلق الباب حتى عاد ارمان إلى حجرة الاستقبال التى كانت مسرحا لهذه الفاجعة ، وهو يحدث نفسه : « لقد انتهى كل شىء على احسن مما كنت اتوقع .. إنك لا تستطيع ان تلزم النساء الحجة (وتسمرهن إلى الحائط) الا بالوقائع .. والآن ، فلأتخذ لنفسى الحيطة من انتقامها ! .. » ثم صمت برهة وعاد يتمتم : « إن اللذة بعد انقضائها تترك فى الفم طعما مرا كالعلقم ! »

الفصل السابع : الدوار !

● الانتقام ! هذا ما فكرت فيه هيلين التعسة عندما عادت من منزل ارمان إلى بيتها ! .. غير ان الصدمة القاتلة التى تلقتها منذ لحظات كانت من العنف بحيث لم تترك فى نفسها مكانا فى الواقع لغير الالم والحسرات .. فان الرجل الذى احبته لم يشعر نحوها بالحب لحظة واحدة ! .. بل انه عندما نالها لأول

مرة كان يعتقد أنها معشوقة (فاراد) ، وربما غير فاراد ايضا !
ياللهول ؟ ! لقد حطمها ارمان ــ باسم « الشرف » ! ــ وقذف
فى وجهها بأقذع التهم .. وتلقاها ، وهى التى احبته حب
الجنون ، باللطمة تلو اللطمة .. حتى كاد يخمد منها الأنفاس !

ظلت هيلين ليالى طوالا نهبا لآلام مروعة .. وذات ليلة
وسوس إليها الشيطان بأنها ما دامت قد اتهمت زورا بما لم
تقترف فلماذا لا تقترف ذلك الإثم الذى اتهمت به ؟ .. سيما
بعد ان لم يتورع حبيبها عن ان يعاملها معاملة المراة التى تهب
جسدها لكل عابر سبيل ؟

ان للحياة المعنوية ، كما للحياة الجسدية ، لحظات يأس
تدفع إلى الانتحار .. وإلى اغتيال ذلك الكائن الحى الحساس
الكامن فى داخل الانسان ، وهو ما يسمونه الضمير ! .. وان
الظلم الذى يقع على الانسان لهو الدافع الغالب الذى يدفعه إلى
مثل هذه الأزمات النفسية المروعة .. فانت عندما تحس بوقع
الظلم عليك ، وتستشعر مرارة ما تعانيه دون ذنب او جريرة ،
فان الكائن المستقيم الوادع الساكن بين ضلوعك ينقلب إلى
حيوان ثائر ، وتستحيل الآدمية فيك إلى وحشية اشد ضراوة
من وحشية ساكنى الأحراش والغابات !

* * *

وذات ليلة ، راى الفريد شازيل زوجته وقد تزينت
ولبست رداء السهرة . وكان قد راعه ما اخذت تتكلفه فى المدة
الأخيرة من مرح مصطنع وسرور زائف .. فلما سألها اين
سيقضيان سهرتهما فى تلك الليلة اجابت : عند « مالور » ! ..

وكان مالور هذا استاذا فى العلوم الهندسية الف ان يقيم
فى منزله حفلات خاصة يدعو إليها بعض تلاميذه واصدقائه .
وذهبا إلى مالور ، وبينما هيلين تحتسى قليلا من الشمبانيا إذا
بصوت يقرع سمعها كهزيم الرعد ، فالتفتت إلى مصدر
الصوت .. وإذا بها امام مسيو (فاراد) ! .. الرجل الذى
لعب فى حياتها دورا خطيرا وكان المعول الذى اهوى به أرمان
على صرح حبها فحطمه تحطيما ! .. وكان وجود فاراد عند
البروفسور مالور امرا طبيعيا ، فقد كان من تلاميذه ، مثل
زوجها الفريد شازيل .. فلماذا اذن فزعت هيلين عندما
راته ؟ إنها كانت تكره هذا الرجل فى الماضى ، اما الآن فهى
تتمنى لو تقدم إليها واقترب منها ، بل وغازلها ايضا ! ..
اليس من المحزن ان تنحدر هيلين من هول الصدمة التى
اصابتها إلى الحد الذى تأسف معه على حياة العفة التى كانت
تحياها فى الماضى ؟ لقد كانت امراة شريفة ، فماذا افادها
الشرف ، وما الذى جنته منه ؟

وحانت التفاتة من فاراد إليها ، فحياها بانحناءة صغيرة
ثم تقدم لمصافحتها .. وبدلا من ان تصده كما كانت تفعل فى
الماضى مدت يدها لمصافحته ، ثم قالت له :

ــ اظنك فى زيارة عابرة لباريس ؟

ــ كلا ياسيدتى ، بل انى اقيم الآن فى باريس .. فقد
عينت استاذا فى المدرسة الحربية بها منذ اربعة اشهر .

ــ لك اربعة اشهر فى باريس ولم تحضر لزيارتنا بعد ! ؟

ــ اننى كنت اتتبع اخبارك باهتمام ياسيدتى ..

وعزفت الموسيقى رقصة الفالس المشهورة (فاوست) فاستأذنها فاراد فى الرقص معها ، فراقصته .. وفيما هـو يثرثر معها خيل إلى هيلين كأنها ترى أرمان واقفـا بينهما ، وتمنت لو رآها الآن كى تتحقق شكوكه ! .. وتشجع فاراد من مسلكها فأخذ يعيد التحدث إليها عن حبه القديم وماسببه جفاؤها معه من آلام ، بحكم كونها المرأة الوحيدة التى أحبهـا فى العالم (!!)

وعاد فاراد إلى منزله الكائن فى شـــارع دومنيك وهو عاقد العزم على أن يشبع نهمه من مدام شازيل بأية وسيلة !.. وكانت هيلين قد قالت له فى نهاية السهرة إنهـا تكون دائمـا فى منزلها بين الساعة الثانية والرابعة بعد الظهر .. فختم حديثه إلى نفسه متمتما : « فالى الغد اذن ! »

أما هيلين فحين عادت مع زوجها عقب الســـهرة بدرت منه هذه الملاحظة :

ــ لقد كنت أعتقد أنك تكرهين مسيو فاراد هــذا ، ومع ذلك فانك لم تراقصى الليلة سواه .. ؟ !

ــ أهذا يثير فيك الغيرة ؟

ــ أبدا ! ولكن الذى يدهشنى هو كيف يتحول الإنسان فى مشاعره من النقيض إلى النقيض ؟ !

ــ اننى دائما أفعل ما يحلو لى !

● وبعد ظهر اليوم التالى ، وبينما كانت هيلين ماتزال فى غرفة نومها ، إذا بالخادم يدق باب حجرتها ليسألها إذا كانت تستطيع أن تستقبل مسيو فاراد ! .. فأجابته على الفور :

ــ ادخله إلى حجرة الاستقبال

وبعـــــد برهة نزلت هيلين إلى حيث كان فـــاراد فى الانتظار .. وما أن رأته حتى مدت يدها لمصافحته وهى تقول: « كم هو ظريف منك أن تحضر لقضاء بعض الوقت معى؟ ! » .. ثم أجلسته على نفس المقعد الذى اعتاد أن يجلس عليه أرمان ليكذب عليها ويدعى أنه يحبها ، كى يشـــبع رغبته منها ! .. لقد أدركت التعسة المسكينة أن لحظة الانتقام منه قد دنت !

وتمددت هيلين على المقعد المستطيل المواجـــه لفاراد وأخذت ترمقه بعينين تائهتين شاردتين . ولم يغب عن فاراد أنها لم تكن فى حال طبيعيـــة ! .. فترك مقعـــده وجلس إلى جوارها على المقعد المستطيل، ثم أخذ يعيد على سمعها الأغنية المجوجة القديمة .. وتركته يتكلم: كم هو يحبها، وكم هو تعس لبعادها عنه .. الخ .. وتركته يدنو منها ، ويلتصق بهـــا ، مشدوهة مسلوبة الرشد !

ثم تركته بعد ذلك يفعل ما يريد .. ففعل ما أراد !

نعم ! لقد استسلمت للرجل الذى تكرهه ، فى المكـــان الذى أبت أن تستسلم فيه للرجل الذى أحبته !

وهرول فاراد خارج المنزل كالبازى عليـــه ســـواد .. وبقيت هيلين ممددة كالجثـــة فوق المقعـــد المســـتطيل حتى المساء .. !

ماذا صنعت هذه التعسة الحمقاء ؟

وفى نوبة الصرع التى تملكتها ، وثبت إلى ذهنها فـــكرة شيطانية : أن تذهب لمقـــابلة أرمان .. ليس غدا .. ولا فى

المساء .. بل الآن ! الآن وفى هذه اللحظة بالذات وهى على تلك « الحال » ! انها ستبحث عنه فى كل مكان ، وستجده .. !

وبعد دقائق كانت هيلين فى عربة تتجه بها إلى شارع لنكولن !

الفصل الثامن : الصدق الكريه !

● اخذت العربة التى تقل هيلين تشق طريقها إلى شارع لنكولن حيث يقيم ارمان . وكانت هيلين تكاد تحترق لهفة على رؤيته ، لتقذف فى وجهه بالحقيقة المروعة والاعتراف الرهيب : « الآن فقط اصبحت عشيقة دى فاراد ! » .. هل يستطيع ارمان ان يكذبها حين تقول له : « لقد كنت طاهرة نقية عندما احببتك .. اما الآن ؟ » .. وكيف يكذبها وفى يمينها دليل لا يدحض : إذا كانت تجرؤ اليوم على الاعتراف بهذه الخطيئة فأى باعث كان يدفعها على انكارها بالأمس ، الا انها كانت بالأمس اتهاما ظالما وافتراء آثما .. اما اليوم فهى الحقيقة البشعة والصدق الكريه ؟ !

.. بذلك ستحمل هيلين هذا الفاجر مسئولية ما ارتكبت ، فهو الذى دفع بها إلى هذا المصير والقى بها فى هذه الهاوية ، وسيكون اعتراف هيلين بمثابة حربة مسمومة تستقر منه فى الضمير !

وصلت العربة إلى المنزل المرموق فنزلت هيلين وسألت البواب بصوت مبحوح : « هل البارون دى كيرن فى منزله ؟ » فاجاب بالايجاب ! ؟

صعدت هيلين درجات السلم وضغطت باصبعها الجرس، ففتح الخادم الباب وادخلها إلى حجرة الاستقبال ، وحينئذ جاء ارمان ليفاجأ بوجوده وجها لوجه امام هيلين ! .. وبدون ان ينطق بحرف قدم لها مقعدا لتجلس ، فقالت فى جفاء ملحوظ :

— لا داع ! .. ان ما اريد ان اقوله لك لن يستغرق وقتا طويلا !

— ان من واجبى ان اعتذر ، فقد كان ينبغى ان ازورك بعد عودتى من السفر ، غير ان مشاغلى الكثيرة عاقتنى ، سيما واننى اعتزم السفر إلى لندن فى آخر هذا الشهر .

— لا تكلف نفسك عناء الاعتذار .. لماذا تريد زيارتى ؟ لعلك تريد أن لا تعرض سمعتى للقيل والقال بعد انقطاعك؟ .. فاذا كان الأمر كذلك فانا اعفيك من هذا العمل الذى تستدعيه اللياقة ! .. لماذا تريد زيارتى ؟ هل لتعيد على مسمعى انك لم تعد تحبنى ، وانك لم تكن تحبنى قط ، ولترانى اتعذب ؟ .. انا لا اظن انك شيطان إلى هذا الحد .. لقد قلت لى كل ما كنت تود أن تقوله . لا تخف ، فاننى لم آت إليك لاستئناف ذلك الحديث البغيض الذى جرى بيننا فى هذا المكان فى آخر لقاء »

— تكلمى اذن ! فاننى منصت اليك ؟ !

— فى تلك المناقشة التى جرت بيننا — والتى اعود فاكرر اننى لا اود استئنافها — قلت لى انك تعرف حياتى وماضى .. بل لقد حددت ماضى وربطته بعلاقة زعمت انها كانت بينى وبين شخص عينته بالذات هو مسيو دى فاراد .. وادعيت بان هذا الرجل كان عشيقى !

— لقد قلت لك إنه ترامى إلى سمعى هذا !

— بل إنك سمعته وصدقته .. !

— كيف اصدق هذه الأشياء ؟ ! لقد اخطات فهمى يا هيلين ، او لعلنى انا الذى اسات التعبير !

— على اية حال فانك إذا عدت إلى سماع هذا الخبر مرة ثانية ، يمكنك فى هذه المرة ان تصدقه .. لانك تتلقاه الآن من مصدر لا يرقى إليه الشك . وهذا المصدر هو « انا » ! نعم « انا » ، فقد اصبحت بالفعل معشوقة فاراد ؟ هل انت سامع؟ لقد اصبحت معشوقة فاراد !

فاجابها الوغد الحقير :

— انت مطلقة الحرية فى كل ما تعملين ، وهذا الذى تقولينه لا يعنينى قط .. هل فى استطاعتى اداء اية خدمة اخرى لك الآن ؟

— لا تمزح ! ان عليك ان تصغى إلى — إذ لا اقل من ان تصغى إلى المراة التى فقدتها ! — نعم ، لقد حسبتنى كنت اكذب عليك عندما كنت اؤكد لك انك اول من احببت ، وانه لم يكن لى قبلك عشيق .. فهل تصدقنى الآن وانا اقول لك ، وفى نفس المكان ، باننى « اصبحت » عشيقة فاراد .. لكننى لم اكن عشيقته فى الماضى قط ! .. لقد عثرت عليه ، وسلمت نفسى إليه ! ..وها انت ترى اننى لا احاول التمثيل امامك ، واننى لا اخشى احتقارك .. ولا ارغب فى استئناف علاقتى بك ! .. لقد دست كل شىء ولوثت كل شىء عندما جعلت لى علاقة بك

فى الماضى ، غير اننى كنت يومئذ عفيفة شريفة ، ولم يكن فى حياتى ما يبعث على تبكيت الضمير .. كنت قد كرست نفسى لك وحدك ! .. هذا ما اريدك ان تعلمه .. ولك ان تقول لنفسك : « لقد كنت عشيقها الاول ، وكانت تحبنى حبا مثاليا لا شائبة فيه .. فماذا صنعت بالمراة التى احبتنى كل هذا الحب ؟ لقد صنعت منها مخلوقا فقد ايمانه بكلّ شىء .. صنعت منها امراة تتخذ لنفسها عشيقا ثانيا وربما ثالثا ورابعا .. صنعت منها امراة ضائعة ! ..» ومرة اخرى اقول لك إنك انت السبب فى ضياعى .. إن استقرار هذه الحقيقة فى قلبك هو سبيلى الوحيد إلى الانتقام : إنى امراة ضائعة ، هل تسمع؟ ضائعة .. ضائعة .. ضائعة » ؟ !

فاهت هيلين بهذه العبارات وقد استبدت بها حمى الغضب والالم ، ومادت بها الأرض فاذا بها تسقط سقطة عنيفة وهى تئن انينا موجعا وتنتحب انتحابا مرا .. احس معه ارمان فجاة كأن نصلا حادا ينفذ إلى اضلاعه فيشعره بالالم والندم ! .. وإذا هو يجثو على ركبتيه ليحاول انهاضها وهو يصيح : « هيلين ! اشفقى على ولاتبكى هكذا .. انهضى! انهضى!» .. فنهضت آخر الأمر متثاقلة متباطئة ، وارتمت على احد المقاعد وهى تغمغم : « لقد انتهى كل شىء .. انتهى إلى غير رجعة ! لماذا صنعت بنفسى هكذا ؟ لقد فقدت الصواب ، فلم اكن اعى الا شيئا واحدا : وهو اننى احبك ! .. يالى من تعسة ، ماذا صنعت بنفسى ؟ لماذا لم آت اليكَ لاستعطفك كى تعيدنى اليك، فربما كنت افلحت فى اقناعك ! .. اما الآن فقد انتهى كل شىء .. ابتعد عنى! لاتلمسنى.. اننى لاتقزز من نفسى «الآن»!

قالتها ودفعته بيديها بعيدا ، فلم يكن عسيرا عليه ان يستنتج انها كانت مع العشيق الآخر منذ وقت وجيز !

وامام هذه « المأساة » لم يستطع ارمان ان يحبس دموعه! .. ولم يكن البكاء من طبعه ، فاسترعى ذلك انتباه هيلين .. فقالت له :

— إننى آسفة لعجزى عن عزائك .. فوداعا .. إلى الأبد هذه المرة !

وهرولت نحو الباب وارمان يتبعها صائحا :

— إلى اين انت ذاهبة ؟

— إننى هاربة منك ؟

واندفعت إلى خارج المنزل واغلقت البـاب وراءها .. بينما بقى ارمان مسمرا فى مكانه لا يقوى على ان ينقل قدميه خطوة واحدة !

الفصل التاسع : تبكيت الضمير !

● انقضت بضعة ايام على هذه الفاجعة عندما تلقى ألفريد خطابا ارسله إليه ارمان من لندن يعتذر له فيه من عدم رؤيته وزوجته قبيل سفره ، لكثرة مشاغله !

وفى لنـدن انقضت الأيام والأسابيع عليه لا يغمض له جفن ، ولا يهدأ له بال ، ولا يرحمه الضمير ! .. لقد شيع نفسا طاهرة بريئة إلى القبر ، وسار فى جنازة امرأة لم تقترف إثما سوى انها احبته حبا جاوز كل حد ! .. ودفع إلى حمـأة الدنس مخلوقا كان قبل ان يعرفه ناصع الطهـر والبياض

كالثلج ! .. فكيف السبيل إلى العزاء ؟ .. وكيف السبيل إلى انقاذ هذه النفس التعسة من الانحدار ؟

ستة اسابيع قضاها ارمان فى لندن وحيدا ، على هـذه الحال ! .. ستة اسابيع كانت حياته خلالها جحيما لا يطاق : فجريمته تلاحقه فى صحوه ورقاده ، وقيامه وقعوده ، وكأنهـا قطعة من جسمه وعضو من اعضائه لايستطيع منها الخلاص.. !

كيف الخلاص ؟ ولمـاذا لا يرحمه الله ؟ اليس هو اولى بالرحمة من سواه ؟ .. ومن احق بالرحمـة من خاطىء .. آثم .. سفاح ؟

فى هذا البحران من الالم لم يجد ارمان إلا متنفسا واحدا لكربته ، ومخرجا واحدا له من غمته : هو ان يعود إلى باريس ليرى هيلين والفريد ولو مرة واحدة .. !

لماذا لا يجرب هذا العلاج ؟ فليعد اذن إلى باريس .. !

* * *

● عاد ارمان إلى باريس فاحس لمجرد رؤيته شوارعها ومعالمها بانه يتخفف من ثقل احزانه .. حقا ما اجمل باريس ! .. غير ان نفسه كانت حزينة حتى الموت وهو فى طريقه إلى شارع لارشفوكو لزيارة صديقيه « ألفريد وهيلين» ! .. وكانت الساعة قد شارفت الثانية بعد الظهـر عندما اعلن الخـادم إلى هيلين خبر قدوم « البارون دى كيرن » .. فجاءت لتلقاه فى حجرة الاستقبال التى كان ينتظر فيها ، والتى طالما دخلها ، لا كما يدخل الاصدقاء ، بل كما يسطو اللصوص ! .. فلما وقع

بصره عليها هاله مارآه من شحوبها وضمورها .. فقد غارت عيناها . وتقوس كتفاها ، وكست صفرة كصفرة الموت خديها اللذين طالما انبثق منهما وهج الحب والشباب ...

وجلست هيلين على مقعد دون ان تنطق بكلمة ، وجلس هو على مقعد آخر قريب منها .. ثم أمســـك بيدها فى رفق ، وقال :

ــ لقد جئت أطلب منك الغفران !

ــ إننى لا اضمر لك حقدا ، فان الغلطة لم تكن غلطتك ! .. إنى عانيت كثيرا من هول المرض .. لكنى « أردت » أن اعيش لأجل ولدى ... ولأجلك انت أيضـــا ، حتى لا يرزح ضميرك بموتى تحت عبء من الألم جسيم !

كان وقع عبارات هيلين على سمع ارمان كأنهـــا العفو صدر على محكوم عليه بالاعدام ! .. فأجابها :

ــ لكم تسببت فى تعذيبك ؟

ــ لا تلم نفسك على ما فعلت .. فان هذا العذاب كان لى سفينة النجاة .. فعندما افترقنا آخر مرة ، كما لاشـــك تذكر ، عدت إلى هنا كالمجنونة .. ولازمت الفراش عدة أيام ، كنت ارى اثناءها عينى الرجـــل الذى خنته ، زوجى ، وهما لاتكفان عن النظر إلى فى عطف وحنان ! .. وبدأت المس الاضرار التى سببتها لكل من حولى .. واحس بالخـــزى يغمرنى من الرأس إلى القدم ..وامام شبح الموت الذى كان يتراءى لى فى كل لحظة اقسمت ان ابذل ماتبقى لى من جهد كى أعود امرأة شريفة كما كنت ! .. إن حياتى الآن لم يعد فيهـــا وجود إلا

لشخصين : ولدى وزوجى ! .. واحسب من حقى أن اطالبك ــ مقابل ماقد منحتك من ذات نفسى وروحى ــ بوعد سيكون بمثابة تذكارك الأخير لى .. واقـــول « الأخير » لأنه يتحتم أن لا يرى احدنا الآخر بعد هذه اللحظة ! .. اما هذا الوعد الذى اطالبك به فهو أن لا تدوس بقدميك قط على قلب امراة ! .. وأن تحترم العاطفة الانسانية الكريمة حيثما وجدتها ، وفى اى قلب التقيت بها ! »

* * *

سكت ارمان فلم يجب ! .. إن هذه العبارات التى كشفت له مدى التبدل الذى طرأ على نفسية ضحيته ، قد طمانتـــه وبددت قلقه الرهيب الذى عاناه طيلـــة اسابيعه الاخيرة فى لندن ! .. وهو قد ادرك الآن مدى آلبر الاسمى الذى تنطوى عليه عاطفة الشفقة .. فان شفقة هيلين علىابنها ، وزوجها، هى التى امسكت بذراعيها وجذبتهما إلى الوراء قبلَ ان تسقط من حالق فى الهاوية التى ليس لها قرار ! .. وأن حبها لهـــذا الابن وهذاالزوج ، هذا الحب النقى القوى ،هو وحده الذى سيضمد جراحات الماضى .. وهو الذى سيمكن هيلين من ان تعيد بناء حياتها من جديد ...

اما ارمان ، فقد شعر بأن إحساسا جديدا يولد فى تلافيف نفسه التى كانت حتى تلك اللحظة نفسا آســـنة عفنـــة .. إحساس يدفعه إلى ان يحيا حياة جديدة نظيفة تقـــوم على احترام الآخرين .. وعدم الاستخفاف بقيم الحياة .. والايمان بآلام البشر ،

(تمت)


ASYA
IVAN TURGENEV
آسيا
إيڤان تورچنيف

— ١ —

● كنت وقتئذ فى الخامسة والعشرين ، شابا قويا أنيقا مرحا، يملك الكفاية من المال .. ابعثر مالى وشبابى على هواى، بغير ان يخطر ببالى ان الزهر المورق يمكن ان يذبل يوما ، او ان من يأكل الطعام الدسم المزود بالتوابل قد ياتى عليــه يوم يشتهى فيه الخبز الجاف !

وكنت قد تحررت من سلطان والدى وشددت رحالى إلى خارج البلاد ، لا لطلب العلم ، وإنما إشباعا لرغبتى فى ان ارى الدنيا ! .. وهكذا لبثت اتنقل فى رحلتى بغير خطة مرسومة او هدف معين . كنت احل حيث يطيب لقلبى البقاء ، ثم ارتحل حين يغرينى الشوق إلى رؤية « وجوه جديدة » بالرحيل ! .. ولم اكن اميل إلى زيارة الأماكن الأثريــة الهامة أو المتاحف والمعارض التى تزخر بمجوعات من « الجمادات الخرساء » ! ولا كان يشــوقنى ان ارى جمال الطبيعــة ممثلا فى الجبــال والشلالات والغابات .. وإنما كان همى الوحيد ان اعيش مع البشر ، ارى وجوههم الإنسانية النابضة بالحياة، واستمع إلى ثرثرتهم وضجيجهم .. اذهب حيث يذهبون ، واصخب حين يصــخبون .. او قــل إنه كان يلذ لى ان اراقب الناس ، بل امتحنهم ، فى كثير من الفضول المرح الذى لا يقنع ولا يشبع !

وفى الوقت الذى وقعت فيه أحداث قصتى كنت قد حللت فى بلدة (ز ..) الألمــانية الصغيرة ، على الضفة اليسرى لنهر الراين ، كى استشفى فى هدوئها من الصــدمة النفسية التى اصابتنى من ارملة شابة طروب عرفتها اثناء رحلة لى على ظهر إحدى السفن .. وكانت جميلة ذكية ، لا تكف عن مغازلة جميع

الرجال ، فشجعتنى على الوقوع فى شرك هواها ، ثم هجرتنى ذات يوم لتلحق بضابط « بافارى » احمر الخدين !

وبمجرد وصولى إلى بلدة (ز ..) اعجبنى فيهــا موقعها ، تحت سفح تل عال ، وابراجها العتيقــة .. وجوهــا العبق باشجار الزيزفون .. واخيرا ـ بل اولا ـ نبيذها المعتق الشهى!

وكنا فى شهر يونيو ، فلم تكن تحين ساعة الغــروب حتى تغص الشوارع الضيقة بفتيات المانيا الشقراوات الجميلات ، اللواتى لا يصادفن اجنبيا حتى يبادرنه بتحيتهن المالوفة « جوتن آبند » بصوت عذب خفيض . واكثرهن لا يعدن إلى بيوتهن قبل ان يشرق القمر من وراء ســقوف البيــوت الأردوازيــة المنحدرة ، فيلمع الحصى الصغير المنتثر فوق الأرصفة ..

فى هذه الساعات اعتدت ان اتسكع فى شوارع المدينة ،فامتع بصرى وحواسى بمرآى امواج النهر الخفيفة وهى تتهادى على صفحته ، وقد انعكست عليها من نوافذ المبــانى ذات الطراز القوطى اشعة الشموع الذهبية المتراقصة .. واتقبل على وجهى لثمات النسيم العابر ، واستنشق عبير الزيزفون العطر بملء رئتى .. حتى اتعب من المسير فاجلس على مقعد حجرى تحت ظل شجرة دردار منعزلة ، اتامل تمثالا صغيرا للعذراء ، وقد حملت فى صدرها قلبا قانيا مطعونا بسيف ، وارسلت عبر اغصان الشجر التى امامها نظرة ساهمة حزينة ..

وذات مساء ، كنت جالسا فوق مقعدى الحجرى المختار ، انقل بصرى بين النهر والسماء والكروم الدانية القطوف .. حين ترامت إلى سمعى فجاة انغام موسيقى تعزف على الضفة

الأخرى من النهر ، حيث تقوم بلدة « ل .. » فلما اصخت لها
سمعى تبينت فيها لحنا من الحان الفالس الراقصة العذبة ،
تتناوب عزفه كمان رائعة وناى ساحر .. فسألت شيخا كان
قد اقترب منى فى تلك اللحظة : « ما هذا ؟ »

فاجابنى وهو ينقل غليونه من ركن فمه إلى الركن الآخر :
« .. انهم طلبة يحتفلون بوليمتهم السنوية التقليدية «الكومرز» ..
واغرانى فضولى ، فركبت زورقا إلى الضفة الأخرى !

— ٢ —

● كانت الوليمة تضم شـمل طلاب البلدة الذين ارتدوا
جميعا لهذه المناسبة السترة التقليدية للطلبة الألمان، ذات الطابع
الهنغارى والألوان الزاهية ، وكانوا فى مثل هذه المآدب السنوية
يجتمعون بإشراف رئيس او عميد يختارونه من بينهم ، فيشربون
وياكلون ويغنون ويضحكون حتى مطلع النهار .. وقد اقاموا
وليمتهم هذه المرة امام فندق « الشمس » الصغير ، فى الحديقة
المشرفة على الطريق العام .. فانتثروا حول الموائد المتفرقة
تحت اشجار الزيزفون ، بينما انتحى عازفو الموسيقى جانبا فى
مقصورة تكسوها اغصان اللبلاب ، وراحوا يجددون نشاطهم
— كلما تعبوا — باقداح البيرة الشهية ! وفى الطـريق ، خلف
جدار الحديقة المنخفض ، وقف جمع حاشـد من اهل البلدة
يشاركون الطلبة احتفالهم الشـائق .. فاندسست بينهم وقد
راقنى ان اتسلى برؤية الشباب يلهون ويتعانقون ويضحكون ،
ضحكاتهم التى بلا سبب ـ امتع انواع الضحك على الاطلاق ! ـ
وجعلت اسائل نفسى وقد استخفتنى بهجتهم وجيشان عواطفهم:
« لم لا انضم إليهم ؟ »

وفيما انا اغالب ترددى ، سمعت صوتا خلفى يسـأل
بالروسية : « آسيا .. الا تريدين التحرك من هنـا ؟ » ..
فاجابه صوت امراة ، باللغة نفسـها : « فلنبق ايضـا بعض
الوقت .. »

والتفت نحو مصدر الصوت ، برغمى ، لأرى شابا وسيما
يرتدى سترة واسعة و « كاسكيت » ، وقد تعلقت بذراعه فتاة
على راسها قبعة عريضة من الخوص حجبت اعلى وجهها ..
فبادرتهما بلا وعى : « هل انتما روسيان ؟ » .. فابتسم الشاب
وهو يحيينى : « نعم » .. فاردفت : « عفوا .. فانى لم اكن
انتظر ان التقى بمواطنين لى فى هذه البلدة النائية ! » .. فقال
مقاطعا : « ولا نحن ! ... لكن هذا من حسن حظنا ، دعنى
اقدم لك نفسى : انا ادعى « جاجين » ، وهذه اختى .. » .

وعرفته بنفسى ، ثم دخلنا فى حديث طويل .. عرفت منه انه
يجول فى البلاد مثلى طلبا للمتعة ، وبرغم إيثارى تجنب الاختلاط
بمواطنى حين اكون فى الخارج ، فان « جاجين » جذبنى على
الفور . كان لطيفا ، عذبا ، ذا عينين واسـعتين جذابتين ،
وشعر ناعم مجعد . وكان يتكلم بحيث تستطيع من مجرد سماع
صوته — ولو لم تنظر إليه — ان تحس بانه يبتسم !

وكانت اخته ـ كما دعاها ـ جذابة رشيقة، ذات قامة فارعة،
ووجه خمـرى مستدير ، وانف دقيق ، وعينين سـوداوين
لامعتين ، ووجنتين صغيرتين ، اشـبه بخدود الأطفـال ..
وكان جسمها بديع التكوين ، عليه مسحة من جلال .. وان بدت
شخصيتها غير كاملة النضوج . لكن اهم ما لفتنى منها انها لم
تكن تشبه « اخاها » فى شىء !

قال « جاجين » موجها الكلام إلى : « هلا اتيت معنا ؟ اعتقد اننا راينا الكفاية من هؤلاء الألمان المتعقلين » .. فلو كان هذا الاحتفال فى بلادنا لكسرنا الواح الزجاج وحطمنا المقـــاعد .. ما قولك يا « آسيا » ، الا تودين الذهاب ؟ »

هزت الفتاة راسها علامة الموافقة، فاستطرد جاجين: « نحن نسكن خارج البلدة ، فى منزل صغير منعزل وســـط حدائق الكروم ، سوف يعجبك .. وقد وعدتنا صاحبته الليلة بعشاء من اللبن الزبادى ، فامض معنا لتستمتع بعبـــور « الراين » فى ضوء القمر .. »

ومضينا .. حتى خرجنا من باب المدينة — التى يحيط بهـــا من كل الجهات سور حجرى عتيق ــ فاستقبلتنا الحقول الممتدة إلى مسافات بعيدة .. وبعد أن سرنا خلالها بعض الوقت وجدنا انفسنا امام باب خشبى صغير لحديقة واسعة ، منزرعة على سفح تل ، ففتحه « جاجين » واخذنا نصعد الرابية خلال ممر وعر ، وقد ترامت حولنا على الجانبين كروم العنب .. وكانت الشمس قد غربت لتوها ، تاركة ضوء الشفق الوردى يلقى حمرته على الدوالى الخضراء ، وعلى جدران البيت الصغير البيضاء التى تطل منها اربع نوافذ مضاءة ترى من بعيد متوجة لقمة التل الذى كنا نتسلقه . وحين اقتربنا من البيت صاح جاجين فى مرح : « هذا هو مثوانا الجميل ، وهذه صـــاحبته الطيبة : « جوتن آبند ، مدام » ــ (اى مساء الخير يا سيدتى) — فردت المراة تحيته باسمة ، بينما استدار الينا جاجين قائلا : « والآن .. نظرة إلى الوراء ، ما رايكم فى هذا المنظر الطبيعى الساحر الذى نطل عليه ؟ »

وكان المنظر رائعا حقا .. «الراين» يجرى امامنا بين ضفتيه كالثعبان الفضى ، وحين تقع عليه اضواء الشمس الغاربة يبدو كانه يحترق تحت ذهبها الأحمر .. والبلدة الصغيرة جاثمة على شاطئه ، تحيط بها التلال والحقول .. والسماء فوق رؤوسنا آية من آيات العمق والنقاء .. والهواء الشفاف المنعش يتماوج على الوجوه ويميس ، كانما يحس فوق المرتفع بمزيد من الحرية!

ولم املك نفسى من القول لجاجين : « لقد احسنت اختيار مسكنك .. » ، فاجابنى على الفور : « أن آســـيا هى التى اختارته » .. ثم التفت إليها قائلا : « آسيا .. مرى باحضار الطعام هنا ، فسوف نتناول عشاءنا فى الهواء الطلق، كى نسمع الموسيقى التى تعزف هناك .. الم تلاحظوا من قبل ان الالحان ــ كهذا « الفالس » مثلا — تزداد روعة وسحرا كلما ابتعدت عن مصدرها ؟ »

ودخلت آسيا، ثم عادت بعد حين تصحبها ربة البيت، تحملان صينية كبيرة عليها آنية اللبن والأطباق والملاعق والخبز والفاكهة، فجلسنا حول مائدة صغيرة نأكل .. وخلعت آسيا قبعتها فتهدل شعرها الأسود على عنقهـــا وأذنيهـــا .. وكانت فى البداية تتحاشانى ، فقال جاجين مازحا : «لا تخافى .. إنه لا يعض! »

فابتسمت ، وبعد قليل توجهت إلى بالكلام . وكانت دائبة الحركة .. تنهض ، وتجرى إلى الداخل ، ثم تعود عدوا وهى تغنى بصوت خافت ، وتضحك لاوهى سبب ، كانما من افكار تجول فى راسها .. تضحك بعينيها الواسعتين اللتين ترسلان نظرة لامعة جريئة ، ترق حينا ، وتعمق أحيانا !

وقضينا على هذا النحو ساعة او ساعتين، نتجاذب الاحاديث خفيفة لينة ، كالهواء الناعم الذى حولنا ، ونصغى للموسيقى البعيدة العذبة ، ونجرع نبيذ الراين الشهى . وكان النهار قد انطفا تماما ، بعد ان تلون كثيرا ، وشحب، ثم غاض تدريجيا . . واضيئت الانوار على الضفة الأخرى، وفى البلدة. وفجاة خفضت آسيا راسها فتساقطت خصلات شعرها على عينيها ، وصمتت برهة . . ثم تنهدت وقالت انها تحس بالنعاس ، وهرعت نحو البيت . . ولكنى لمحتها على الاثر وقد جلست وراء نافذة غرفتها، بغير ان تضىء نورها ! . . وبقيت على هذا الوضع طويلا !

ونهض القمر من مرقده ، فتمطى والقى اشعته على امواج النهر . . فتغير لون كل شىء ، حتى النبيذ فى كؤوسنا اتخذ لونا غامضا ولمع ببريق غريب ! . . وهبت الريح ، ثم طوت اجنحتها وخمدت حركتها . . ومن الأرض فاح شذى فاتر كصلاة الليل . . فقلت وانا انهض :

ـ آن لى ان انصرف ، والا تعذر على ان اجد ملاحا ينقلنى إلى الضفة الأخرى . .

فقال جاجين : « نعم ، هذا انسب . . »

ورحنا نهبط الطريق الوعرة ، وفجاة بدات تتدحرج وراءنا احجار صغيرة ، وإذا آسيا تعدو لتلحق بنا ! . . فهتف بها اخوها : « إذن فانت لم تنامى ؟ ! » . . لكنها لم تجب ، وكانت قد لحقت بنا وجاوزتنا وهى مستمرة فى العدو . . وحين بلغنا ضفة النهر وجدناها تتحدث مع احد النوتية ، فقفزت انا إلى قاربى وصافحت جاجين مودعا ثم مددت يدى إلى آسـيا . .

لكنها لم تحرك ساكنا لمصافحتى بل اكتفت بان نظرت إلى ثم خفضت راسها . . بينما جذب الملاح شراعه فمرق الزورق بنا ينزلق مع تيار النهر السريع . . وعلى غير انتظار جاءنى صوت آسيا تصيح بى من البر : « إلى اللقاء ! » ، وصوت اخيها يردد وراءها : « إلى غد » . . ثم ابتعد الزورق بى يشق اللجة السوداء ، وعلى جانبيه تصطفق الامواج . .

وحين هبطت منه ، على الضفة الساكنة ، مضيت قدما نحو مسكنى عبر الحقول القاتمة ، استنشق الهواء المعطر . . حتى بلغت غرفتى وقد استخفتنى نشوة غامضة . . احسست انى سعيد ، ولكن بم ؟ ولم ؟ لم ادر . . فما كنت احلم بشىء ، او افكر فى شىء ، وإنما كنت فقط . . سعيدا !

على هذه الحال اويت إلى فراشى فى تلك الليلة . . وفيما انا اغمض عينى لانام ، وثب إلى ذهنى خاطر مفاجىء : « هل انا عاشق . . ؟ » . . لكنى قبل ان اجيب على تساؤلى ، سرقنى النعاس من وعيى . .

— ٢ —

● صحوت فى الصباح التالى على صوت طرق بالعصا تحت نافذتى وغناء مرح ، تبينت فورا انه غناء جاجين ، فاسرعت افتح له . . وقال وهو يدخل : « اغفر لى وزر إزعاجك فى هذه الساعة المبكرة ، فان الصباح جميل منعش يستحق ان تستمتع به مثلى ! »

وكان هو ، بشعره المصفف اللامع ، وخديه المتوردين ، وقميصه المفتوح . . خير صورة للانتعاش . . فلبست وخرجنا

إلى الحديقة حيث جلسنا على مقعد وطلبنا قدحين من القهوة ونحن نثرثر .. حدثنى عن هوايته للرســـم واعتزامه تكريس مستقبله له ، ودعانى إلى زيارته لرؤية لوحاته التى رسمها .. واثناء الطريق حدثته انا عن غرامى الفاشل للأرملة الطروب ، فتنهد مرة أو مرتين على سبيل المجاملة ..

ولم نجد آسيا فى البيت ، وقالت صاحبة النزل انها خرجت للنزهة بين أطلال القصر المتهدم الذى خلفه العصر الاقطاعى ، على بعد ميلين من البلدة .. فلم نكد نفرغ من رؤية الرســـوم حتى اقترح جاجين ان نمضى للبحث عن آسيا .

كانت الطرق المؤدية إلى الأطـــلال تتلوى على منحدر واد ضيق تكسوه الأشجار، ويجرى فى وسطه غدير تصخب مياهه السريعة وهى تصطدم بالحصى ، كانها ملهوفة للحاق بالنهـــر الكبير الذى يبرق مجراه من بعيـــد فى هدوء خلف قمم التـــلال السمراء ..

ولم نلبث ان اشرفنا على الطلل البالى. كان يقوم فوق صخرة عارية ، اشبه ببرج مربع اسود يحتفظ ببقية من صلابة ، فيما عدا شرخ يكاد يشطره .. وكانت تتسلقه اغصان اللبلاب ، ويقود إلى بوابته التى قاومت الزمن والبلى طريق حجرى لم نكد نقترب منه حتى لمحنا شبح امراة تجرى فوق كومة من الأنقاض فى اتجاه نتوء متطرف من البناء يشرف مباشرة على الهاوية .. وفجاة صاح جاجين: « يا الهى، انها آسيا .. يا للمجنونة ! »

اما هى فلم تكد ترانا حتى ضحكت ، لكنها لم تتحرك من مكانها .. فلوح لها اخوها باصبعه مهددا ، ووجهت انا إليهـــا عبـــارة لوم على تهورها ، وإذ ذاك قاطعنى جاجين هامسا :

«صه ، انها عنيدة ، ولو كررت لومك لما ترددت فى تسلق البرج إلى قمته ! »

فما كان منى الا ان احجمت .. وكان فى ركن المكان كـــوخ صغير من الخشب فيه عجوز شمطاء تنسج شرابا من «التريكو» وهى ترمقنا من وراء نظارتها بين الحين والآخـــر . كانت تبيع للسياح زجاجات البيرة وكعك الزنجبيل .. فجلسنا على مقعد مستطيل امام كوخها نجرع البيرة المنعشـــة فى اقداح كبيرة من الصفيح ، بينما ظلت آسيا فى مكانها بلا حراك وقد لفت رأسها بوشاح من الموسلين .. وفيما انا افكر فى تصرفها هذا الصبيانى رمتنى فجاة بنظرة حادة وضحكت ، ثم قفزت من مكانها واقبلت تسأل العجوز قدحا من المـــاء ...

لكنها بدلا من ان تشربه ، حملته فى يدها ، وتسلقت الطلل من جديد واخذت تسقى بضع ازهـــار ذابلة متناثرة فى ارجائه وهى تنحنى عليها فى رشاقة وخفة اعجبتانى ، وفى مكان خطر اطلقت عامدة صرخة جزع لتوهمنا انها ستقع ، ثم ضحكت من فزعنا ! .. وحين افرغت قدح الماء استعادت توازنها وتمطت بحركة لعوب ثم عادت إلينا وعلى شـــفتيها ابتســـامة خفيفة غامضة ، وغمزت لنا بعينيها السمراوين غمزة استهتار عابثة .. وكأنها تقول لى : « اتجد مسلكى غير لائق ؟ هذا لا يهم ، فانا موقنة انك عتيد أن تحبنى ! »

لكنها عادت فأحست فيما يبدو انهـــا قد افرطت فى عبثها ، فخفضت اهدابهـــا الطويلة وجاءت تجلس فى هدوء بجوارنا ، وقد لاذت بالصمت .. كالمعترفة بذنبها !

ولم تخرج من صـمتها إلا حين حلا لجاجين أن يمازحنى ، فرفع قدح البيرة إلى فمه وقال : «فلنشرب نخب مالكة فؤادك !» .. فلم تكد آسيا تسمع العبارة حتى سألتنى على الفور : « ماذا .. هل .. هل هناك امراة تشغل بالك ؟ »

فقال جاجين : « ومن ليس له ؟ »

وإذ ذاك صمتت وشردت برهة ، وقد تغير محياها ، ثم عاودتها ابتسامة « الشقاوة » المتحدية !

وفيما نحن عائدون تابعت تصرفاتها الطائشة ، وحماقاتها الصبيانية، وضحكها وغناءها بصوت عال .. لكننا لم نكد نبلغ البيت حتى اعتكفت فى غرفتها ولم تبرحها إلا ساعة الغداء ، وإذ ذاك خرجت إلينا مرتدية اجمل ثيابها ، وقفازيها ، وقد صففت شعرها ابدع تصفيف .. وجلست تأكل وتشرب فى وقار تام، وكانها ارادت ان تمثل امامى دورا جديدا ، دور المراة كاملة التهذيب .. بينما اكتفى اخوها بان ينظر إلى من حين لآخر نظرة كانها تقول : « انها طفلة .. فكن متسامحا معها ! »

وعندما انتهى الغداء انحنت لنا فى أدب ثم وضعت قبعتها على راسها واستاذنت اخاها فى ان تذهب لزيارة « فراو (مدام) لويز » .. فاجابها جاجين باسما : « متى كنت تستاذنيننى فى الخروج؟ » . وبعد ان مضت قال لى وهو يتجنب عينى: «فراو لويز هذه هى ارملة عمدة البلدة ، وقد احبت آسيا ، التى بادلتها بدورها الحب ، تمشيا مع طبيعتها التى تميل إلى الاختلاط بالطبقات الادنى من طبقتنا فى المستوى الاجتماعى .. إنه نوع من الكبرياء فيما اعتقد ، وآسيا كما ترى مدللة ، وانا مضطر لمعاملتها بشىء من التسامح .. »

ولم اعلق على كلامه .. وقضيت معه الساعات الأربع التالية فى أحاديث متشعبة ، خرجنا منها صديقين .. وحين مالت الشمس للمغيب وفكرت فى الانصراف اقترح جاجين ان يصحبنى فى طريق العودة ، كى يعرفنى « بفراو لويز » .. فمضينا حتى بلغنا شارعا ضيقا متعرجا ووقفنا أمام بيت من ثلاثة طوابق مقام على اعمدة ضخمة ومنقوش على الطراز العتيق ، فصاح جاجين :

ــ آسيا ... هل انت هنا ؟

وعلى الأثر فتحت نافذة غرفة مضاءة فى الطابق الثانى وبرز منها رأس آسيا الأسمر الصغير، ثم اتكأت بمرفقيها على حافة النافذة فى رشاقة وقالت لأخيها : « نعم انا هنا .. إليك ، خذ هذا الغصن وتخيل انى مالكة فؤادك ! » .. والقت إليه بغصن من زهرة « الجرانيوم » ، فاستغرقت مدام لويز فى الضحك ــ وكانت واقفة خلفها ــ وإذ ذاك استطرد جاجين مشيرا إلى :

ــ صديقنا يريد الانصراف ، وهو يود ان يودعك ..

ــ حقا ؟ إذا كان الأمر كذلك فاعطه الزهرة هدية منى ..

ثم اغلقت النافذة ، فمد جاجين يده إلى بالزهرة بغير ان ينطق بكلمة .. فوضعتها فى جيبى ومضيت، وقد أحسست بثقل غريب على قلبى ! ورحت اسائل نفسى فى شك متزايد وانا افكر فى آسيا ، برغمى : « اهى حقا اخته ؟ » .. وحين دخلت غرفتى خلعت ثيابى واويت إلى فراشى محاولا ان انام .. لكنى بعد ساعة وجدت نفسى اجلس فى فراشى ، وانا افكر .. افكر من جديد فى الفتاة ذات النزوات الغريبة والضحكة المصطنعة .. وعدت اهمس لنفسى : « نعم .. انها ليست اخته ! » .

— ٤ —

• وفى صباح اليوم التالى عدت إلى الأخوين ، زاعما لنفسى إننى أتوق إلى رؤية جاجين ، وأنا فى الحقيقة مشوق إلى رؤية آسيا ، ومراقبة أطوارها الغريبة .. وفى هذه المرة بدت لى ، بثوبها القديم وشعرها المرسل إلى الوراء ، روسية أصيلة غاية فى البســـاطة .. لا سيما وهى جالســـة إلى النافذة تطرز ، صامتة، إلا حين تنفرج شفتاها بين الحين والآخر بأغنية روسية « تدندن » بها بصوت خفيض ..

وتأملت محياها .. فاذا هو منطفىء ، أميل إلى الاصفرار . وفيما أنا مشغول بالتفكير فى أمرها اقترح جاجين أن نخرج إلى الخلاء لنستمتع بالطقس الجميل ، ليرسم هو شيئا من الطبيعة. وأوصى آسيا أن تعنى بمراقبة ما تعده صاحبة النزل لطعام الغداء .. ثم مضينا ، هو وأنا ، حتى وصلنا إلى الوادى.. فجلس على حجر وأخذ يرسم شجرة بلوط ضخمة عتيقة، بينما تمددت أنا على الحشائش أقرأ كتابا .. لكنه رمى فرشاته بعد برهة وأقبل فارتمى بجـــوارى وجعلنـــا نتحدث .. فى كل شىء .. حتى حان وقت العودة فنهضنا ، وفى البيت وجدت آسيا كما تركتها ، لا يبدو عليها أثر من روح الطيش أو الصـــبيانية .. وفى المساء تثاءبت عدة مـــرات ثم اســـتأذنت فى أن تأوى إلى فراشها . وبعد برهة انصرفت أنا بدورى مبكرا ، وقبـــل أن أنام سمعت نفسى أقول بصوت مسموع ، دون وعى منى :

— يا لها من حرباء ... هذه الفتاة !

وبعد أن فكرت بعض الوقت أضفت قائلا : « ولكن ، برغم كل شىء ، فإنها ليست أخته ! » .

— ٥ —

• وانقضى أسبوعان ، تابعت خلالهما ترددى كل يوم على بيتهما ، لكن آسيا بدت كمن تتعمد أن تتجنبنى ! ولاحظت أنها كفت عن حماقاتها وصارت أميل إلى الكآبة والوجوم .. وظهر لى من اختلاطى بها أنها تتقن الفرنسية والألمانية ، وإن اختلفت تربيتها وطباعها عن أخيها كل الاختلاف ، كانت هى مستوحشة بقدر ما هو رقيق دمث ، بل كانت ما تزال فجة فائرة ، كالنبيذ الحديث العهد ! .. وبرغم طبيعتها الخجولة كانت تحاول دائما أن تصطنع الجرأة والتهور ، فتفشل فى تمثيلهما ، وذات يـــوم فاجأتها وحيدة تقرأ كتابا ، وهى معتمدة رأســـها بين كفيهـــا وأصابعها مدفونة فى شعرها ، فقلت لها مهللا : « برافو ! » .. وإذ ذاك رفعت رأسها قليلا ورمقتنى بنظرة جدية صـــارمة ، وقالت : « أو ظننتنى غير قديرة إلا على الضـــحك ؟ » .. ثم قذفت بالكتاب على المنضدة وأضافت : « أفضل أن ألهو قليلا » .. ثم هرعت إلى الحديقة !

وبالاختصار ، فانها بدت لى مخلوقة غامضة .. وبمرور الأيام ازداد يقينى بأنها ليست أخت جاجين ، فقد كان يعاملها غير معاملة المرء لأخته ، ويجزل لها العطف والتسامح والرعاية . وذات ليلة حدث ما ضاعف شـــكوكى فى هذا الشأن : كنت فى طريقى إلى بيتهما فوجدت البوابة مقفلة ، وآثرت ألا أزعجهما بالنداء فاتجهت نحو ثغرة فى الحائط المهدم وقفزت خلالهـــا ، وفيما أنا أقترب من البيت سمعت نجأة صوت آســـيا من وراء إحدى الأشجار تقول والغصة فى حلقها :



وفيما أنا أقترب من البيت سمعت فجأة صوت آسيا من وراء إحدى الأشجار ..

ــ كلا ، لا اريد ان احب ســواك .. ابدا ، ابدا ، لا اريد ان احب غيرك انت وحدك ، وإلى الابد ..

ــ هدئى من روعك . تعلمين انى اصدقك ..

ــ نعم ، احبك انت ، انت وحدك !

وارتمت على صدره وهى تشهق بانفعال شديد ، ثم ضمته إليها ، وعانقته بكل قوتهــا .. فمر بيده فى رفق على شعرها وهو يكرر : « اهدئى .. اهدئى .. »

لبثت جامدا فى مكانى برهة ارقبهما .. ثم تســللت بخطى خفيفة عائدا من حيث اتيت ، وانا اعجب للمصادفة التى ايدت ظنونى فى حقيقة الصلة بينهما ، وقلبى مفعم بالمرارة من هذه النتيجة المفاجئــة ! .. ولم البث ان همست لنفسى محنقا : « يا لهما من ممثلين .. ولكن فيم كل هذا العناء ، وماذا يبغيان من خداعى ؟ »

ولم انم تلك الليلة !

وفى الصباح كان عزمى قد استقر على القيام برحلة فى الجبال القريبة لبضعة ايام ، لعلها تنسينى انفعال الأيــام الأخيرة ، وتطفىء جزوة حقدى على صديقى من اجل أكذوبتهما الكبرى على .. بغير داع !

وفى الحال شددت رحالى ومضيت أجوب التلال والوديان ، واقضى ليالى فى حانات الطريق .. وكان الطقس جميلا رائعا ، فاستمتعت بالطبيعة اكمل متعة واقصاها ، وانا اتأمل الغيوم فى دلالهــا مع الشمس والقمر .. واستنشق عبير الحقــول

والغابات .. وانصت لخرير الغدران الشفافة والأنهار، وتغريد الطيور فوق الأفنان .. واملأ عيني وحواسي من الجبال والصخور السمراء، والقرى بكنائسها العتيقة ومبانيها المتنافرة الطراز، وطواحينها الهوائية، ووجوه وازياء اهلها، وعرباتها ودوابها، وسيل المسافرين فى الطرق النظيفة التى تحف بهـا اشجار التفاح والكمثرى .. الا سلامى إليك ايها الركن المتواضع من الأرض الألمانية، سلامى إليك .. ولتعش ابد الدهر فى سلام!

— ٦ —

● عدت من رحلتى بعد ثلاثة ايام فوجدت فى انتظارى رسالة من جاجين يعتب فيها على سفرى بغير إخطاره، ويطلب منى أن اتصل به بمجرد عودتى . فلما ذهبت إليـــه فى اليوم التـــالى استقبلنى مرحبا، مكررا عتابه، اما آسيا فلم تكد ترانى حتى استغرقت فى الضـــحك وولت هاربة ! .. وخجل اخوها من تصرفها فاعتذر نيابة عنهـــا .. وتظاهرت بانى لم آبه للأمر وشرعت اقص عليه تفصيلات رحلتى القصيرة .. وحين فرغت منها زعمت ان لدى عملا عاجلا يحتم على العودة إلى غرفتى، فاقترح جاجين ان يصحبنى خلال الطريق .. وعند خروجنا اقتربت منى آسيا ومدت لى يدها، فتناولت اطراف اصابعها مصافحا وحييتها تحية فاترة !

وعبرنا (الراين) .. وعند ما بلغنا مكانى المفضل، حيث شجرة الدردار وتمثال العذراء، كنا قد تعبنا فجلسنا على المقعد المعهود .. وهناك جرى بيننا اعجب حديث ! بدانا بالكلام فى موضوعات عامة، ثم صمتنا ونحن نتامل النهر الشفاف .. وفجاة بادرنى جاجين وهو يبتسم ابتسامته المالوفة :

— ما رايك فى آسيا ؟ .. الا تبدو لك غريبة الأطوار ؟

فاجبته وقد فاجانى سؤاله : « بلى .. » وإذ ذاك استطرد:

— يجب لكى تحكم عليها ان تعرفها .. ان لها قلبا طيبا، ولو عرفت قصتها لالتمست لها عذرا !

فقاطعته متسائلا : « قصتها ؟ .. اليست هى ؟ »

— اختى ؟ .. نعم هى اختى، ابنة ابى ! اصغ إلى .. ان لى ثقة فيك، وساروى لك كل شىء :

● « كان ابى رجلا طيبا، ذكيا، مثقفا .. وتعسا ايضا ! لم يكن حظه من الحياة اقسى واشد صرامة من حظ غيره، ولكنه لم يستطع تحمل الصدمة الاولى التى امتحنته بها الأقدار .. كان قد عقد فى شبابه زواج حب، ولكن زوجته — امى — ماتت بعد ولادتى بستة اشهر . وإذ ذاك اخذنى ابى إلى الـــريف حيث عاش بقية حياته لا يفارقه .. ومضت علينا هناك اثنتا عشر عاما عنى فيها والدى بتعليمى وتربيتى بنفسه . وما كان لينفصل عنى لو لم يزرنا اخوه — عمى — ذات يـــوم ويقنع ابى بضرر تنشئة صبى فى سنى فى عزلة تامة موحشة، وفى كنف اب حزين صموت وجو مقبض خانق .. ثم الح عمى على ابى فى ضرورة انتقالى معه إلى حيث كان يشغل منصـــبا هاما فى « ســـان بطرسبرج »، كى يشرف على تثقيفى فى الجو الملائم، فقبل ابى آخر الأمر مضطرا بعد مقاومة عنيفة، وحين ودعته كى ارحل مع عمى بكيت بكاء مرا، فقد كنت احبه .. برغم انى لم ار الابتسامة على شفتيه طيلة عهدى معه !

« وفى بطرسبرج التحقت بمدرسة صف الضباط من ابناء النبلاء ، ثم تخرجت منها فعينت فى فرقة الحرس .. وكنت ازور ابى فى « منفاه » الريفى كل عام فاجده فى كل مرة اشد حزنا وانطواء على نفسه من العام الذى قبله! .. وفى إحدى زياراتى، وكنت فى العشرين ، رايت لأول مرة فى بيته طفلة نحيلة فى نحو العاشرة ، ذات عينين سوداوين ، هى آسيا ! .. وقال لى ابى انها يتيمة تعهدها برعايته ، فلم اولها انتباها خاصا فى اول الأمر ، سيما وانها كانت نفورة مستوحشة بطبعها .. حتى لقد كانت تجرى لتختبىء خلف مقعد والدى أو خلف مكتبه كلما دخلت انا غرفته المظلمة التى كانت تضاء بالشموع فى رابعة النهار!

● « ثم اقتضتنى وظيفتى ان اعجز عن زيارة ابى فى السنوات الثلاث او الأربع التالية ، وكنت اتلقى منه كل شهر خطابا وجيزا لا يشير فيه إلى آسيا فى اغلب الأحيان ، وإذا اشار فبكلمة عابرة . وكان وقتئذ قد جاوز الخمسين — وان بدا فى مظهره شابا ! — وهكذا يمكنك تصور مبلغ جزعى حين تلقيت يوما رسالة من وكيله ، على غير انتظار ، ينبئنى فيها بان ابى على فراش الموت ، ويرجونى ان اهرع إليه فورا إذا اردت ان اودعه .. الوداع الأخير !

● « اسرعت بالطبع .. فوجدت أبى ما يزال حيا ، وإن كان فى النفس الأخير. ففرح برؤيتى فرحا شديدا ، واحتضننى بين ذراعيه الهزيلتين، ثم نظر إلى طويلا نظرة فاحصة متوسلة وهو يرجونى أن اعده بتنفيذ وصيته الأخيرة . فلما وعدته طلب إلى خادمه الخاص المسن ان يذهب فيحضر .. آسيا !

« جاءت الصبية ترتجف ، ولا تقوى على الوقوف .. فقال ابى وهو ينازع لينطق بالكلمات: « إليك ابنتى .. اختك! اتركها فى رعايتك ، وسوف يقص عليك خادمى (اياكوف) كل شىء » .. وهنا شهقت الصبية بالبكاء وارتمت على فراش ابى .. ولم تمض نصف ساعة حتى كان ابى قد فارق دنيا الأحياء !

● « والآن إليك ما عرفته من « اياكوف » : كانت آسيا ابنة ابى من وصيفة امى القديمة «تاتيانا»، التى ما ازال اذكر قامتها الطويلة المشوقة ، ووجهها الجميل — الذى يحمل مسحة الجد والذكاء — وعينيها القاتمتين .. وكانت قد عرفت بانها فتاة معتدة بنفسها ، منيعة على الطامعين فى حسنها .. لكنها — طبقا لما عرفته من الخادم المسن — لم تلبث ان اشتبكت فى صلة خاصة مع ابى ، بعد وفاة امى بسنوات ، وكانت قد تركت البيت وعاشت مع اختها المتزوجة فى ضيعة قريبة .. وقد بلغ من تعلق ابى بها بعد رحيلى مع عمى حدا دفعه إلى محاولة الزواج منها، لكنها ابت ذلك عليه إباء شديدا رغم توسلاته المتكررة ! .. بل انها رفضت — محافظة على المظاهر — ان تنتقل لتعيش فى بيته كمدبرة لشئونه، وظلت تقطن عند اختها، ومعها ابنتها.. آسيا .. وانى لاذكر اننى فى طفولتى لم اكن ارى « تاتيانا » الا فى ايام الأعياد ، فى الكنيسة ، وقد اتشحت بغطاء لراسها وكتفيها وركعت بين الجماهير قرب النافذة تتعبد بوجه صارم ، فى ضراعة ، وتذلل ، وخشوع .. !

« وحين ماتت تاتيانا ، كانت آسيا فى التاسعة .. فاخذها ابى لتعيش معه ، وكان قد أعرب عن رغبته فى ذلك من قبل فابته عليه امها ! ولك ان تتصور ما احست به الصبية حين

البسوها ـ لأول مرة ـ ثوبا من الحرير واخذوها لتقيم فى بيت «السيد» ، حيث صار الخدم يقبلون يدها ! وحيث منحها ابوها حريتها الكاملة ـ بعد ان نشأتها امها نشأة صارمة ـ فقد احبها بكل عاطفته ، واعتبر نفسه ـ فى اعماقه ـ المسؤول عن ماساتها !

« وسرعان ما ادركت آسيا انها الشخصية الأولى فى البيت، وأن (السيد) هو ابوها ! .. لكنها ادركت ايضا بنفس السرعة مبلغ ما فى مركزها من زيف ، فنما اعتدادها بكرامتها وتشككها فى مستقبلها بصورة مبالغ فيها . ورسخت عاداتها السيئة فى نفسيتها بقدر ما تبخرت بساطتها الطبيعية وتلاشت .. وقد اعترفت لى مرة بأنها تريد أن ترغم الناس جميعا على نسيان « اصلها » فقد تملكها الخجل من عار امها ، ثم الخجل ـ فى نفس الوقت ـ من خجلها هذا ، لأنها فى قرارة نفسها كانت فخورة بهذه الأم !

« وهكذا ترى انها وقفت على اشياء كان يجب ان تجهلها فى سنها هذه ! .. ولكن ، ترى هل كان ذلك خطأها ؟ انها قد وجدت نفسها فى ظرف يعصف فيه شبابها بها وما من يد إلى جوارها تأخذ بيدها وترشدها ! .. وفى حمى استقلالها الكامل بعد ذلك ارادت الا تكون أقل من لداتها وزميلاتها فى مستواها، فعكفت على القراءة تنفق فيها وقتها . وعصمها ذلك من الانحدار، فظل قلبها نقيا وروحها بخير .. وعندما وكل أمرها إلى كنت فى العشرين وهى فى العاشرة . وفى الايام الأولى التالية لوفاة ابى كان مجرد سماع صوتى يثيرها ، وقبلاتى تورثها الدوار ! .. ولم تعتد الحياة معى إلا تدريجيا وببطء

شديد .. وإن تكن قد تعلقت بى فيما بعد ـ حين ادركت انى اعاملها واحبها فعلا كأخت ـ وكان تعلقها بى مفرطا ، فهى فى عواطفها لا تعرف الاعتدال قط !

« واخذتها معى إلى بطرسبرج ، وكم تألمت وانا اودعها القسم الداخلى بالمدرسة التى اخترتها لها .. وادركت هى أن الظروف تحتم علينا الانفصال، فاستسلمت .. لكن ألمها واساها اسلماها لفراش المرض الذى كاد يسلمها بدوره للموت ! .. على انها لم تلبث ان اعتادت مع مرور الأيام حياتها الجديدة فانفقت فيها اربع سنوات . وحين استرددتها اخيرا ادهشتنى ـ وضايقتنى ـ ان وجدتها كما تركتها فى البداية ، لم تتغير طباعها فى شىء ! .. وشكتها إلى مديرة المدرسة بقولها : « ان من المستحيل تقويمها بالعقاب ، كما ان اللين بدوره لا يجدى معها » .. وفهمت من اساتذتها انها تستوعب دروسها بسهولة وذكاء حاد تفوق فيهما زميلاتها ، لكن داءها الأكبر انها ترفض الخضوع لنظام أيا كان، وبأى ثمن، بل تعاند وتجادل فى كل مناسبة ! .. وكانت قد اصطفت لنفسها من بين تلميذات المدرسة جميعا صديقة واحدة ، فقيرة وقبيحة ومضطهدة .. اما بقية زميلاتها ـ واكثرهن من بنات الأشراف والخاصة ـ فقد ناصبن آسيا العداء ، وكن يسئن إليها ويسخرن منها ويجرحن إحساسها كلما وجدن إلى ذلك سبيلا! .. وبرغم ذلك فانها لم تكن تبادلهن الإساءة بالإساءة ..

«واخيرا بلغت السابعة عشرة ، وكان من غير الممكن تركها فى القسم الداخلى بعد هذه السن ، وكنت قد انهيت مدة خدمتى العسكرية ، فطرأت لى فكرة الرحيل إلى الخارج لمدة عام او

عامين ، واخذ آسيا معى .. ونفذت فكرتى فعلا ، وها نحن على ضفاف الرين ، انا امارس الرسم ، وهى تمارس الحماقات والتصرفات الخرقاء ، كعادتها ! .. لكنى ارجو ــ بعد ان عرفت قصتها ــ الا تقسو فى الحكم عليها بعد الآن ، فبينما يبدو انها تسخر من كل شىء ، اعلم انا جيدا انها تقدر لكل إنسان رايه ، وتقدر رايك انت على وجه الخصوص .. »

وابتسم جاجين ابتسامته الهادئة .. وفيما انا اصافحه مقدرا له صراحته وإخلاصه، استطرد قائلا : «ولكن هذا يهون إلى جانب ماهو اشد خطرا، واجلب للمتاعب .. فحتى الساعة لم يعجبها رجل ! لكن الطامة الكبرى ستقع يوم تحب احدا .. وقد جاءتنى منذ ايام تعاتبنى بدعوى ان محبتى لها قد فترت ، واكدت لى انها لا ولن تحب سواى ، طيلة حياتها ! .. وفيما هى تكرر لى ذلك شهقت بالبكاء فى انفعال شديد » .

● وعند هذا كدت اصيح بمحدثى : « إذن فتلك كانت حقيقة المشهد الذى رايته وانا اعبر الحديقة ! ؟ » لكنى اعتقلت لسانى فى آخر لحظة ، وقلت لجاجين :

ــ ولكن هل من الممكن الا تكون قد وجدت رجلا يعجبها حتى الآن ، وقد اتيحت لها فرصة التعرف بكثير من الشبان فى بطرسبرج ؟

ــ هذا ما حدث .. فهى تحلم ببطل من الابطال ، برجل غير عادى .. والا فسوف تعشق راعى غنم متواضع تتعرف به على سفح احد الجبال . فهى كما قلت لك لا تعرف فى عواطفها الاعتدال ! لكنى قد اسرفت فى الثرثرة وضايقتك، فلا نصرف ..

ــ هيا بنا إلى منزلك، فليس بى ميل إلى العودة إلى غرفتى ..

ــ وعملك الذى قلت انك تريد إنجازه ؟

ولم اجب .. فابتسم جاجين ابتسامة ودية ، ومضيت معه .. وعندما شارفنا حقول الكروم وطالعنى البيت الصغير الأبيض فوق التل ، احسست بعذوبة غريبة .. عذوبة اثملت روحى ، كما لو ان شخصا سكب فيها ــ سرا ــ قنينة من عسل النحل !

ــ ٧ ــ

● واستقبلتنا آسيا على عتبة الدار ، شاحبة ، صامتة ، مخفوضة العينين .. فقال لها جاجين ، مشيرا إلى :

ــ هذا هو مرة اخرى، واعلمى انه هو الذى اراد ان يعود..

فرمقتنى بنظرة تساؤل ، ومددت لها يدى مصافحا .. وفى هذه المرة شددت الضغط على اصابعها الصغيرة الباردة ، وقد اخذتنى الشفقة عليها بعد ان وجدت فى قصة اخيها تفسيرا لكثير من اطوارها التى طالما حيرتنى : قلقها الداخلى ، وتصرفاتها غير اللائقة ، وميلها إلى التكلف والتمثيل ! .. إن حملا خفيا ثقيلا يجثم على صدرها ، وإن سحرها الذى جذبنى لينبع من روحها ايضا وليس فقط من الجمال نصف المتوحش الذى يتسم به جسدها الدقيق .. !

وانصرف جاجين إلى رسومه، فاقترحت على آسيا ان نتمشى قليلا فى حقول الكروم .. وقبلت هى على الفور ، بترحيب

وغبطة وانقياد .. ولم تلبث ان ابتدرتنى قائلة : « او لم تحس بالمضايقة اثناء رحلتك .. وانت بعيد عنا ؟ » .

ــ وهل لم تحسى انت ايضا بالمضايقة فى فترة غيابى ؟

ــ بلى .. وهل استمتعت بتسلق الجبال ؟ ترى اهى اعلى من السحاب ؟ قص على كل ما شاهدته ، ما رويته لاخى فى غير حضورى ..

ــ إنك انت التى بادرت بالانسحاب من المكان !

ــ انسحبت لأن .. لأن .. لكننى لن انسحب الآن ، اكنت غاضبا منى اليوم ؟

ــ وفيم الغضب ؟

ــ لست ادرى ، لكنك غضبت وذهبت غاضبا ، وقد آلمنى هذا .. اما الآن فانى مغتبطة بعودتك !

ــ وانا مغتبط بعودتى ايضا ..

فهزت آسيا كتفيها ، كما يفعل الأطفال فى أوقات السرور ، واستطردت :

ــ استطيع ان ارى ذلك .. لقد اعتدت ان اعرف ما إذا كان ابى راضيا عنى ، أم غير راض ، من مجرد سماع سعاله من الغرفة المجاورة !

ولم تكن حتى هذه اللحظة قد اشـــارت يوما إلى ابيهـــا فى حديثها ، فسألتها فى ارتباك :

ــ هل كنت تحبين اباك ؟

فاحمر وجهها ولم تجب ، صمت كلانا ! .. ومن بعيد كانت سفينة بخارية تشق عباب الراين ، فتطلعنا نحوها .. وفجاة غمغمت آسيا :

ــ لم لا تتكلم ؟

ــ ولم ضحكت انت اليوم لمجرد رؤيتك إياى ؟

ــ لست اعلم .. احيانا احس بميل إلى البكاء ، فاضحك . لا تحكم على حسب تصرفاتى ..

ورفعت آسيا راسها وارخت خصـــلات شـــعرها .. ثم استطردت بعد صمت قصير غام خلاله محياها الشاحب بظلال غامضة :

ــ قل لى .. إلى اى حد انت معجب بـــ « مالكة فؤادك » التى شرب اخى نخبها ونحن فى الاطلال ؟

ــ انه كـــان يمزح .. ما من امـــراة اعجبتنى ، اعنى .. تعجبنى الآن .

ــ وما هو نموذج المراة التى تعجبك إذن ؟

ــ يا له من سؤال .. !

اضطربت آسيا قليلا ، فقالت كالمعتذرة :

ــ ما كان يجب ان اوجه إليك سؤالا كهذا .. اغفر لى ، فلقد اعتدت ان اقول كل ما يجول براسى ، لهذا تجدنى اخشى ان اتكلم فى اكثر الأحيان ..

ــ بل تكلمى ، ارجوك ، ولا تخشى شيئا .. فانه يسرنى ان اراك آخر الأمر تتخلصين من شعورك بالضيق .

خفضت آسيا عينيها ، وضحكت ضحكة خفيفة .. ثم اردفت وهى تصلح طيات ثوبها كمن تتاهب لجلسة طويلة : « تكلم .. قص على شيئا ، او اتل بضع ابيات من الشعر المحفوظ .. »

.. قالت هذا وراحت تترنم ببعض اشعار « بوشكين » بصوت خفيض .. فتاملتها وقد بدت غارقة فى اشعة الشمس ، وكل ما حوالينا ـ السماء ، والأرض ، والماء ، والهواء ذاته ! ـ يبرق بوميض فاتن .. فلم أملك ان قلت كالهامس ، برغمى :

ـ اترين الدنيا .. كم هى جميلة ! ؟

ـ نعم ، انها جميلة .. آه لو كنا ـ انت وانا ـ من الطير ، اذن لوثبنا فى الهواء وحلقنا فى الفضاء ، وغرقنا فى هذا الشفق .. لكننا لسنا من الطير !

ـ لكن هناك اجنحة تستطيع أن تدفعنا ..

ـ وكيف ذلك ؟

ـ سترين ، حين تتقدمين فى السن .. انها العواطف التى ترفعنا عن الأرض . لا تخشى شيئا ، فسيأتى يوم تكون لك فيه اجنحة !

ـ وانت ؟ الم تكن لك ؟

ـ ماذا اقول .. يخيل إلى انى لم احلق قط فوق الأرض ، حتى الآن !

استغرقت آسيا فى التفكير من جديد ، فملت نحوها فى خفة .. وفجاة سألتنى :

ـ اترقص « الفالس » ؟

ـ نعم ارقصه ..

ـ اذن هيا بنا نرقص .. سأطلب من اخى ان يعزف لنـــا « فالسا » .. ولنتخيل انه قد نبتت لنا اجنحة ، واننا نطير ..

وركضت نحو البيت، فتبعتها ركضا بدورى .. وبعد دقائق كنا ندور على انغام الفالس الحالم فى ردهة الدار الضيقة .. ورقصت آسيا ببراعة وحرارة وجذل . وقد رق مظهرها الجاد على حين غرة وافعم انوثة ونعومة .. وبعد ان فرغنا من الرقص احتفظت يدى طويلا باحساسها بملمس ظهر الفتاة الناعم .. واحتفظ حسى طويلا بنشوته بانفاسها اللاهثة القريبـــة .. وخلتنى ما أزال ارى عينيها السمراوين الساكنتين ، وســـط محياها الشاحب المنفعل ، يحيط به إطار من خصلات شعرها الثائرة المجنونة ..

وقضينا ذلك النهار كله نلهو كالأطفال .. وكانت آسيا لطيفة معى ، بسيطة بلا تكلف .. وحين اقبل الليل انصرفت عائدا إلى بيتى ، ولم يكد الزورق يتوسط بى النهر حتى رجوت الملاح ان يكف عن التجديف ويتركنا لهوى الأمواج والريح .. فجعلت اتلفت حولى ، واصغى ، واتذكر ، وقد احسست فجاة فى قلبى بنوع من القلق الغامض ! .. رفعت عينى إلى السماء ، لكن السماء لم تكن اقل قلقا منى ، كانت النجوم التى رشقت فى جوانبها فى حركة دائمة ، تهتز ، وترتعش .. فانحنيت على النهر تحتى ، فاذا هو الآخر بلجته العميقة السوداء يضطرب ويختلج .. بدا لى كل شىء كأنما يعانى انفعالا وقلقا ، فتزايد القلق فى اعماقى . صارت غمغمة الهواء فى اذنى ، واصطفاق

الأمواج وهى تلطم مؤخــر الزورق تثير اعصــابى ! .. وبدأ بلبل يغرد على الضفة الاخرى، فنقل إلى النسيم لحنه العذب ، وإذا الدمــوع تترقرق من عينى .. واحس ظمأ شــديدا إلى السعادة ، وشوقا إلى ان اشفى غليلى منها حتى الثمالة ! .. والزورق ماض يتأرجح بى على صــدر الأمواج ، ويقترب من الشاطىء ..

— ٨ —

● وفى الصباح مضيت كعادتى نحو « البيت الأبيض » يستخفنى مرح بهيج، وفرحة طاغية بالتقارب الجديد المفاجىء بين آسيا وبينى .. شعرت انى لم اعرفها الا منذ امس ، اما قبل ذلك فكانت غريبة عنى ، ينقصها هــذا السحر النورانى الذى اضاء محياها بغتة ، فى يوم وليلة !

واحمر وجهها حين دخلت .. لكنى لحظت انها مكتئبة ، على غير ما كنت اتوقع ، حتى لقد خيل إلى انها تنوى ان تنتهز أول فرصة فتفر من المكان ــ كما اعتادت ان تفعل فى الماضى ! ــ لكنها فيما يبدو قد تحاملت على نفسها هذه المرة وبقيت ..

وكان جاجين منشغلا بالرسم فجلست قريبا منها ، وإذ ذاك ادارت نحوى عينيهــا القاتمتين فى بطء .. وبعــد ان بذلت محاولات عقيمة لإعادة الابتسامة إلى شفتيها ، قلت لها :

ــ إنك اليوم غيرك بالامس ..

ــ هــذا صحيح ، فانى لم انم الليلة ، لبثت طيلــة الليل افكر ..

ــ فيــم ؟

ــ أوه ، فى اشياء كثيرة .. انها عادة قديمة عندى ، منذ طفولتى .. منذ كنت اعيش مع امى .

نطقت الفقرة الأخيرة بصعوبة .. ثم كررتها ، واستطردت:
« كنت افكر واقول لنفسى : لم لا يستطيع الإنسان أن يعرف ما سوف يحدث له فى المستقبل .. ومع ذلك ، اى جدوى فى ان يعرف المكروه الذى سيصيبه ولا يملك دفعه أو منعه ؟ .. ثم فكرت فى انى جاهلة ، لم اتلق التعليم الكافى ، ولا التربية والتهذيب اللازمين .. فانا لا اعزف على البيانو ، ولا ارسم ، ولا اخيــط حتى ثيابى .. اننى محرومــة من كل الهبــات والمؤهلات ، ولا بد ان عشرتى تجلب الضيق .

ــ إنك تظلمين نفســك ، فانت قد قرات كثيرا وتثقفت ، وبذكائك تستطيعين ...

ــ هل انا ذكية ؟

قالتها بلهجة فضول صبيانى لم املك معه غير ان اضحك .. اما هى فلم تضحك او حتى تبتسم ، وإنما التفتت إلى اخيهــا وسألته « جاجين .. هل انا حقا ذكية ؟ » .. لكنه لم يجبها ، بل استمر فى عمله ، فمضت تقول وهى تمعن الفكر : « لست ادرى انا نفسى احيانا ما فى راسى .. واؤكد لك انه تمر بى اوقات احس فيها بالخوف من نفسى. فهل حقا يجب على النساء الا يقران كثيرا ؟ .. قل لى مــاذا يجب ان اقرا . قل لى ماذا يجب ان افعل . سوف افعل كل ما تشير به على .. » .

قالتها وهى تتوجه إلى فى ثقة ساذجة، فلم اجد ما اجيبها به فورا ، وإذ ذاك اردفت : « احقا انك لا تحس بمضايقة وانت معى ؟ » .

— اوه ، بلا شك ..

— شكرا ، هذا يكفى .. فلقد طالما ظننت اننى اجلب لك السأم !

ومدت يدها الصغيرة الساخنة فشدت على يدى بقوة .. وفى تلك اللحظة هتف بى جاجين : « الست ترى هذا اللون قاتما ؟ » .. فاقتربت منه ، بينما نهضت آسيا وابتعدت ..

ولم تعد الا بعد ساعة ، حين ظهـرت على عتبة البـاب واشارت لى بيدها كى اذهب إليها ..

— قل لى .. لو مت انا ، هل تحزن على ؟

فصحت بها مستنكرا : « اية افكار تدور فى راسك اليوم ؟ »

— يخيل إلىانى ساموت قريبا .. فانى احس احيانا ان كل شىء منالاشياء التى حولى يودعنى ! او ليس الموت افضل من حياة كهذه ؟ .. آه ، لا تنظر إلى، فلست امزح .. ولئن بدوت لك متغيرة فليس هذا خطاى ، فما عدت استطيع الضحك !

● ولبثت آسيا مكتئبة مهمومة حتى المساء .. كان بها شىء لم استطع تفسيره . كنت افاجىء عينيها احيـانا ترمقاننى ، فينقبض قلبى تحت وقر نظرتها الغامضة .. وإن كان قـد اعجبنى هدوؤها ، وراقنى مسحة الجلال المؤثرة فى قسماتها الشاحبة، وحركاتها البطيئة المترددة .. وقبل انانصرف بقليل

جاءتنى تقول : « اسمع .. اعلم انك تعتقد انى طائشة نزقة ، وهذا ما يؤلمنى .. ولكن ثق انى سوف اكون صريحة معك منذ الآن ، ولكن بشرط ان تـكون انت بدورك صريحـا معى .. واعدك بشرفى انى لن اقول لك غير الصدق . لا تضحك .. اتذكر حديثك معى امس عن الاجنحة ؟ انى احسها تدفعنى .. لكنى لا اجد مكانا اطير فيه واحلق !

— كيف ذلك ؟ ان كل السبل مفتوحة امامك ..

فنظرتإلى نظرة مباشرة فىعينى، وقالتوهىتقطب حاجبيها:

— إنك اليوم تسىء بى الظن ..

— انا ؟ .. أسىء الظن بك انت ؟

وهنا قاطعنا جاجين وهو يقترب: « ما بالكما هكذا حيارى؟ اتريدان ان أعزف لكما « فالسا » كامس ؟ ».. فاجابته آسيا وهى تقلص يديها : «كلا ، كلا .. لنارقصاليوم مهما حدث !»

— ٩ —

● « ترى اهى تحبنى ؟ » .. هكذا رحت اسائل نفسى ، وانا اقترب من النهر الذى كانت امواجه السمراء تتدافع مسرعة ، لا تلوى على شىء ...

« امن الممكن انها تحبنى ؟ » .. مرة اخــرى وجدت نفسى اتساءل حين صحوت من نومى فى الصباح التالى ، ولم اشأ ان امعن النظر فى اعماقى . احسست ان صورتها ، صورة الفتاة ذات الضحكة المغتصـبة ، قد تغلغلت إلى نفسى .. وانه لن يسهل على الخلاص منها !

وتوجهت إلى بيتها ، وقضيت فيه النهار كله ، لكننى لم ار آسيا الا لماما ، فقد كانت تشكو من صداع فى راسها .. فلم تبرح غرفتها إلا برهة وهى معصوبة الجبين ، شاحبة الوجه، مغمضة العينين تقريبا .. وحينئذ ضحكت ضحكة واهنة وقالت : « انه لا شىء ، وسينقضى .. كل شىء ينقضى ، اليس كذلك ؟ » ثم عادت إلى غرفتها .. فانتابنى ضيق خانق، وكآبة ، وخواء ! .. ورغم انى اخرت ساعة انصرافى عامدا ، فانى لم ارها مرة اخرى فى تلك الليلة ..

ولم اذهب فى الصباح التالى ، اردت ان اشغل نفسى بالعمل فلم استطع .. فحاولت الا اعمل شيئا ، او افكر فى شىء ، ولكن بلا جدوى .. فمضيت اتسكع فى البلدة ، ثم عدت إلى غرفتى، ثم خرجت مرة اخرى ... وفجاة سمعت خلفى صوت صبى ينادينى ، ليقدم لى « رسالة من المدموازيل آسيا » !

ففضضت الظرف ، فتبينت على الفور خط آسيا السريع غير المنتظم .. وقرات هذه العبارات : « يجب ان اراك باى ثمن، فتعال عصر اليوم فى الساعة الرابعة إلى الكنيسة التى تقع فى طريق الاطلال .. لقد ارتكبت اليوم حماقة كبرى .. تعال بربك وستعرف كل شىء .. قل للصبى انك ستحضر .. » .

وفعلت .. وحين عدت إلى غرفتى جلست افكر ، وقد اخذ قلبى ينبض بشدة .. واعدت قراءة الرسالة مرات ، ونظرت فى ساعتى .. لم تكن الساعة قد بلغت الثانية عشرة بعد .. وفجاة فتح الباب ، ودخل .. جاجين !

كان وجهه محتقنا ، وصافحنى بقوة وقد بدا عليه الاضطراب

.. ثم تناول مقعدا وجلس فى مواجهتى .. قلت له : « ماذا بك ؟ » فأجاب بعد تردد : « منذ ثلاثة ايام ادهشتك بالقصة التى رويتها لك عن آسيا .. واليوم سأدهشك بقصة اغرب، ما كنت لاصارحك بها لولا ثقتى فى صداقتك وشرفك .. اصغ إلى : ان اختى آسيا ، تحبك ! » .

قلت وجسدى كله ينتفض : « تقول .. تحبنى ؟ » .

— نعم .. لقد قضت نهار امس كله — كما تعلم — فى فراشها ، بغير ان تاكل .. لكن ذلك لم يقلقنى ، برغم الحمى الخفيفة التى اصابتها فى المساء .. لكننى فوجئت فى الساعة الثانية صباحا بربة البيت توقظنى قائلة : « اذهب إلى اختك ، فانها ليست بخير » .. واسرعت إليها ، فوجدتها بكامل ثيابها وزينتها ، تجهش بالبكاء واسنانها تصطك وراسها يشتعل بالحمى .. ولم تكد ترانى حتى ارتمت على رقبتى وراحت تتوسل إلى ان اخرج معها حالا ، إذا اردت لها ان تظل على قيد الحياة !

« لم افهم شيئا .. فحاولت تهدئتها ، لكن بكاءها ازداد حدة وعنفا .. ومن خلال دموعها سمعتها تغمغم بانها تحبك ! .. واستطيع ان اقول لك انى — برغم تجاربى السابقة — لم ار من قبل مثيلا لعمق عاطفتها .. وقد اعترفت لى انها احبتك منذ النظرة الاولى ، وهذا ما جعلها فى ذلك اليوم تبكى وتقول لى انها لا تريد ان تحب احدا سواى .. فهى تعتقد انك تحتقرها، وتعرف اصلها ! .. وقد سألتنى عما إذا كنت قد رويت لك قصتها فأجبت طبعا بالنفى ، لكن حساسيتها تبلغ حدا مفزعا .. وقد بقيت معها حتى الصباح ، ولم تنم إلا بعد ان وعدتها بأن نسافر غدا .. وبعد تفكير طويل انتهيت إلى وجوب

الحضور إليك ومصارحتك بالأمر كله . وقد فكرت فى الرحيل
اليوم بدل الغد ، لولا ان وثب إلى ذهنى خاطــــر احتمالى ..
قلت لنفسى « من يدرى ، لعــل اختى .. تعجبك ! » ومن ثم
قهرت فى نفسى كل خجل زائف واعتزمت ان آتى لأسالك ؟ » .

واضطرب المسكين ، وتلعثم .. ثم اردف : « اعذرنى، فانا
لم اعتد مثل هذه المواقف ! »

.. واخذت بيده ، وقلت له بصوت جاد : « تريد ان تعرف
إذا كانت اختك تعجبنى ؟ نعم ، انهـــا تعجبنى » .. فرمقنى
بنظرة حائرة ، وقال بعد تردد: «ولكن.. إنك لن تتزوجها؟ »
.. فقلت له بدورى : « كيف تريدنى ان اجيب على سؤالك ؟
احكم انت : هل استطيع ذلك الآن .. ؟ » .

فقاطعنى قائلا : « اعلم ، اعلم .. ليس من حقى ان اطالبك
بجواب ، وقد كان سؤالى ذاته غير لائق ، ولكن ماذا تريدنى
ان افعل ؟ .. لا استطيع ان العب بالنار .. انك لا تعــرف
طبيعة آسيا .. فقد يحتمل ان تمرض ، وان تفر هاربة ، وان
تطلب منك موعدا غراميا .. ولو كانت فتاة غيرها لكتمت عنى
كل شىء ، لكنها لم تستطع ، إنها اول مرة يحدث لها فيها هذا!
الحادث، وهنا موضع الخطر ! .. ولو رايتها وهى تتمرغ عند
قدمى وتبللهما بدموعها هذا الصباح .. لقدرت مخاوفى ! » .

ووخزتنى إشارته إلى « الموعد الغرامى » .. فشعرت بأن
من العار الا اقابل صراحته وإخلاصه بمثلهما ، فقلت له بعـــد
تردد قصير : « انت محق .. فقد تلقيت منذ ساعة واحـــدة
رسالة من اختك ، هى هذه .. » .

وتناولها جاجين ، ومر ببصره على سطورها بسرعة .. ثم
ترك راحتيه تسقطان على ركبتيه فى حركة يأس وحيرة .. وما
لبث ان قال : « اكرر لك اعجابى بنبـــل خلقك ، ولكن مـــاذا!
بوسعنا ان نفعل الآن ؟ وكيف تفسر هذه المتناقضات . انهـــا
تريد السفر ، ثم تكتب إليك نادمة على حماقتها .. فماذا ترى
تريد منك ؟ » .

حاولت تهدئته ، ولبثنا نقلب الامر على شتى وجوهه بكل
ما وسعنا من اناة وتبصر ، فانتهينا إلى ان الحكمة ان اذهب
إليها فى الموعد الذى حددته ــ تجنبا لأى احتمال سىء ــ وان
يتظاهر جاجين بجهله التام بموعدها ، ويكتم عنها حديثه معى
.. ثم يلتقى بى فى المساء لنرى ما يكون ؟

ولم يكد يرحل حتى استلقيت على فراشى وقد دار راسى :
« كيف اتزوج صبية فى الســـابعة عشرة ، وفى مثل طبعها ؟ »
.. وكان اشد ما افزعنى اننى يجب ان انتهى إلى قرار حاسم
فى هذا الشأن .. الليلة !

— ١٠ —

● وفى الموعد المحدد خرجت إلى مكان اللقاء ، فوجدت الصبى
الذى سلمنى رسالة آسيا ينتظرنى برسالة جديدة ، ترجونى
فيها ان القاها فى منزل « فراو لويز » بعد ساعة ونصف ..
فقلت للصبى انى سأذهب ، وقررت قضاء الوقت الباقى على
الموعد الجديد فى حانة قريبة .. فلما حان الموعـــد نهضت من
الحانة وانا اقول لنفسى : « انها لا تعلم انى بدورى احبها ..
ومع ذلك، فلن استطيع الزواج منها ! » .. والقيت بالنقود فى

يد الساقية ، ثم يممت شطر بيت مدام لويز وظلال الغـــروب
تصبغ الكون بالوانها ..

وطرقت على الباب بخفة ، فانفتح ، ودخلت .. وإذا انا فى
ظلام دامس ، وسمعت صوت العجوز تقول لى : « تعال من
هنا .. نحن فى انتظارك » ، فخطوت فى الظلام خطوتين أو ثلاثا
حتى تلقتنى يد نحيلة معروقة ، وصعدت بى السلالم فى حذر
حتى بلغنا الطابق الثانى .. وعلى ضوء شعاع هزيل مارق
من داخل الشقة لمحت وجه مرافقتى . كانت تضىء وجهها
المجعد وشفتيها اليابستين وعينيها الضئيلتين ابتسامة خبيثة !
.. وقد فتحت لى الباب ، ثم اغلقته خلفى بغير ان تدخل ..

كانت الغرفة التى دخلتها معتمة إلى درجة لم اتبين معهــا
آسيا إلا بصعوبة . وإذا هى جالسة على مقعد كبير بجوار
النافذة ، وقد تدثرت بشال عـــريض على كتفيهـــا ، وراحت
انفاسها تتتابع وجسدها ينتفض كطير نافر مذعـــور .. فلما
اقتربت منها اعتدلت وحاولت ان تواجهنى بعينيها ، لكنها لم
تستطع .. وتناولت يدها فاذا هى باردة ، هامدة ، كيد جثة
ميتة !

وابتدرتنى وهى تحاول الابتسام جاهدة فلا تطاوعها شفتاها
الشاحبتان : « لقد اردت .. اردت ان .. كلا ، لا استطيع! »
.. وصمتت ، وكان صوتها يخذلها بعـــد كل كلمة ، فجلست
قربها وقلت هامسا : « آسيا ! .. » .

.. ثم عجزت بدورى عن الكلام ، فســـاد بيننا الصمت ،
واكتفيت بالنظر إليها والاحتفاظ بيدها بين راحتى ! .. كانت

تعض شفتها السفلى كى تمنع نفسها من البكاء ، وتقمع دموعها
فى حلقها قبل أن تصعد إلى عينيها .. وغاص قلبى ، فهتفت
بها بصوت محتبس : « آسيا ! » .. وإذ ذاك رفعت عينيها
ببطء إلى . كانت فيهما نظرة امراة تحب ! كانتا تتوســـلان ،
وتتحدثان .. تسألان، وتعطيان .. فلم استطع مقاومة ندائهما،
وسرت من اطرافها الملتهبة إلى جسدى جذوة نار .. فانحنيت
وقبلت يدها ، قبلة طويلة ، وسمعتها تتنهد، ثم احسستها تضع
على شعرى يدا واهنة ، ترتعش كالريشة .. فرفعت وجهى
وتأملت وجهها .. كان قد تبدل فى لحظة ، اختفى منه تعبير
الخوف وسبحت نظرتها نحو بعيد، واخذتنى معها .. وانفرجت
شفتاها ، وشحب جبينها كالرخام، وتباعدت خصلات شعرها
كما لو كان قد نثرها الهواء إلى وراء ..

ونسيت كل شىء فجذبتها نحـــوى .. وطاوعتنى يدها فلم
تقاوم ، ثم لان جسدها وانقاد لحركتى ، وانزلق الشــــال عن
كتفيها .. فاستراح راسها على صـــدرى فى رفق ، ثم ..
اختلج فمها تحت شفتى الساخنتين كالنار !

وسمعتها تغمغم بصوت لا يكاد يبين : « انى لك ! » ..
وكانت يداى قد انزلقتا على جسدها .. ولكن فجاة تذكرت
جاجين ، فهتفت وانا اتراجع بحركة غير إرادية : « ماذا نحن
فاعلان ؟ .. ان اخاك يعلم كل شىء ، يعلم انى هنا الآن ..
نعم ، أخوك يعرف كل شىء.. فقد اضطررت لأن اصارحه !».

فقالت وهى تتهالك على مقعد : « اضطررت ؟ وما الذى
اضطرك ؟ » .

— انت ! .. لماذا اعترفت له بسرك ؟ من الذى ارغمك على البوح له بقصتك ؟ .. لقد جاءنى بنفسه صباح اليوم وحكى لى تفصيلات المناقشة التى جرت بينكما امس .

— لقد ضاع كل شىء .. كل شىء !

— بربك ما الذى ازعجك فجعلك تفضين إليه بذات نفسك؟ هل لحظت انى تغيرت ؟ .. اما من ناحيتى فلم اســـتطع ان اخدع اخاك حين جاءنى هذا الصباح ..

— لم اكن انا التى استدعيت اخى فى الليلة الماضية ، لقد جاء من تلقاء نفسه !

— انظرى اذن ما فعلت .. والآن تريدين الرحيل ؟

— نعم . انا مضطرة للسفر .. ولئن طلبت إليك الحضور الليلة فلكى اودعك فقط ..

— او تحسبين انه سيسهل على فراقك ؟

— اذن فلماذا اخبرت اخى بموعدنا هذا ؟

— قلت لك انى لم استطع غير ذلك . ولو لم تفضحى نفسك باختيارك لمـــا ...

— لقد اقفلت غرفتى على بالمفتاح ، ولم اكن اعلم ان لدى صاحبة البيت مفتاح آخر .. حتى فوجئت بدخول اخى على !

وكاد هذا الاعتذار الساذج يثيرنى وقتئذ .. اما الآن فلا اذكره حتى يرق قلبى لها .. يا للطفلة المسكينة ، المخلصة ، البريئة !

وعدت اقول وانا اذرع الغرفة واصيح كالمحموم، وبين لحظة واخرى اختلس نظرة إليها :

— وهــا نحن الآن ، وقد انتهى كل شىء .. كل شىء .. ووجب أن نفترق ! .. انك لم تتركى العاطفــة التى كانت قد بدأت تنضج حتى تختمر .. بل حطمت بنفسك الرباط الذى كان يقرب بيننا .. وما ذلك إلا لانك كانت تعوزك الثقة فى !

ولم اكد اصل إلى هذا الحد من كلامى حتى ارتمت آسيا على ركبتيها وراحت تشهق بالبكاء وراسها بين يديها .. فهرعت إليها وحاولت رفعها ، لكنها قاومت .. وانا بطبعى اعجز ما اكون عن تحمل دموع النساء ، لا اكاد اراها حتى افقد ثباتى .. ومن ثم جعلت اهتف بها ضارعا فى لهفة :

— آسيا ! آسيا ! .. اتوسل إليك ، بحق السماء كفى ..

وتناولت يدها .. لكنها ، لدهشتى، وثبت فجاة على قدميها واندفعت نحو الباب بسرعة البرق .. ثم اختفت !

وحين دخلت « فراو لويز » الغرفة بعد لحظات ، وجدتنى واقفا حيث كنت ، كالمصعوق ! .. لم ادر كيف انتهى اللقـــاء هكذا فجاة ، وبهذه السرعة .. انتهى وانـــا لم افرغ من عشر ما كنت أريد ان اقول ، وما كان يجب ان اقول .. !

وسالتنى العجوز مدهوشة : « ماذا ؟ هل رحلت الآنسة ؟ » نظرت إليها بغباء .. وخرجت !

— ١١ —

● وتركت البلدة ورائى ورحت اعدو فى الحقول كالمجنون ، وقد تولانى نكد قاتل، وندم شديد .. وانهلت على نفسى باللوم والتقريع: كيف طاوعنى قلبى على أن اصد المسكينة، بل اقسو فى تأنيبها ؟ .. وخلت صورتها تتبعنى وتطاردنى ، بوجهها

الشاحب ، وعينيها المبللتين المذعورتين ، وشعرها المرسل على عنقها .. وخلتنى اسالها الصفح ، وراســـها نائم على صدرى .. واحسست بجوفى يحترق .. وسمعتها تغمغم من جديد : « انى لك ! » .. فساءلت نفسى : احقــا كنت اتمنى الخلاص منها ؟ احقا استطيع الافتراق عنها ؟ احقا اســـتطيع صبرا على فقدها؟ .. فاجابتنى نفسى فى غضب وغيظ: « غبى! . غبى! ».. ووجدتنى اوسع الخطى فى الطريق إلى بيتها ..!

واستقبلنى جاجين على الباب صائحا فى انزعاج :

ــ هل رايت اختى ؟

ــ الم تعد إلى البيت ؟

ــ كلا .. اغفر لى تطفلى، لم استطع منع نفسى من الذهاب إلى مكان لقائكما ــ خلافا لاتفاقنا ــ لكنى لم ارها هناك .. او لم تلقك ؟

ــ بل التقينا ..

ــ اين ؟

ــ عند فراو لويز .. وقد تركتها منذ ساعة ، وكنت اعتقد انها عادت ..

ــ فلننتظر ..

وجلسنا ننتظرها ، صامتين ، قلقين .. نتطلع إلى الباب ، ونرهف سمعنا إلى الطريق .. واخيرا نهض جاجين :

ــ هذا فوق ما احتمل .. لم يعد قلبى فى مكانه .. إنهـــا

ســـوف تقتلنى ، أؤكد لك .. هيا نبحث عنهـــا .. ولكن فيم تحدثتما ؟

ــ انها لم تبق معى غير خمس دقائق ، تحدثنا فيها حسب اتفاقى معك ..

وخرجنا إلى الظلام نبحث عنها ! ومضى كلانا فى طـــريق ، على أن نلتقى فى البيت بعد ساعة ..

وهبطت انا حقول الكروم عدوا ، ورحت اذرع شـــوارع البلدة ، وادور بعينى فى كل مكان ، وركضت على ضفة النهر ، وصادفت بعض النساء .. لكنى لم اقف لآسيا على اثر !

واستولى على رعب قاتل ، وندم يلهب الاحشاء .. وحب يفوق الوصف .. نعم «حب» ! .. فرحت الوح بذراعى وانادى آسيا فى ظلام الليل المتكاثف ، بصوت يزداد علوا ، حتى يبلغ درجة الصياح .. كررت لها مائة مرة انى احبها ، واقسمت لها الا اتركها ابد الدهر . واحسست برغبة فى التخلى عن كل ما املك فى نظير ان اتناول من جديد يدها الباردة بين راحتى، واسمع صوتها الناعم ، واراها امامى .. هى التى كانت اقرب ما تكون منى، حين جاءتنى تحدوها براءة العاطفة والعزم المطلق، كى تضع ملك يمينى شبابها الغض، الذى لم يمس .. فحرمت نفسى بنفسى من لذة رؤية وجهها الحبيب يطفر هناء ونشوة !

وكدت أجن .. أين ذهبت ، وماذا جرى لهـــا ؟ .. اخذت اصيح فى لوعة وياس لا يوصفان ، وفجاة لمحت شبحا ابيض يمر مسرعا عند ضفة النهر ، قرب صليب حجرى مقام على قبر شهيد غرق منذ نصف قرن .. فسقط قلبى ، وركضت فى

اتجاه القبر ، لكن الشبح الأبيض اختفى .. وصحت باعلى صوتى : « آسيا ! » .. فأفزعنى صوتى ، ولم يجب أحد !

وعدت ادراجى ..

وفيما انا اصعد طـريق الكروم ، لمحت ضوءا ينبعث من نافذة غرفة آسيا .. فافرخ ذلك من روعى بعض الشىء .. لكنى وجدت باب البيت مغلقا ، فطرقته .. وإذا نافذة غرفة مظلمة فى الطابق الأرضى تفتح فى حذر ويطل منها راس جاجين ، هامسا :

— لقد عادت ، وهى الآن فى غرفتها تخلع ثيابها .. وكل شىء على ما يرام .

فصحت صيحة فرح لا توصف : « حمدا لله .. حمدا لله .. لكن لى معك حديثا » .. فقال وهو يغلق النـافذة فى رفق : « ليس الآن .. فى فرصة اخرى .. وداعا » .

عندئذ خطر لى ان انقر على النافذة مرة اخرى ، كى اقول له بلا إبطاء انى اطلب يد اخته .. لكن طلبا كهذا ، فى سـاعة كهذه ، يكون مضحكا ولا شك ! حسنا .. إلى غد ! غدا اظفر بالسعادة !

لست اذكر كيف عدت إلى مسكنى .. لم تكن قدماى اللتان حملتانى ، ولا الزورق هو الذى اقلنى ، وإنما اجنحـة كبيرة قوية قد حلقت بى فى الهواء ! .. ومررت بدغل فيه بلبل يغرد ، فوقفت واصغيت له وهو يغرد انشودة حبى وهنائى .. !

— ١٢ —

● عندما اقتربت من البيت الصغير الأبيض فى الصـباح التالى ادهشنى ان ارى نوافذه كلها مفتوحة ، وامام بابه اوراق متناثرة .. وخادم بيدها مكنسة ! وما ان راتنى حتى قالت :

— لقد رحلوا ..

— رحلوا ؟ كيف ؟ متى ؟

— هذا الصباح ، الساعة السادسة ، ولم يتركوا عنوانهم .. ولكن انتظر ، فعلك مسيو (...) ؟

— انا هو بالفعل ..

— مع سيدتى خطاب لك ..

وصعدت ثم عادت به .. ففضضته ، كان من جاجين ، يقول لى فيه انه يعتذر عن هذا السفر الفجائى ، الذى سوف اقره عليه لو فكرت فى الأمر مليا ، فانه لم يجد حلا آخر للموقف المعقد الذى بات ينذر بالخطر .. فقد قصت عليه آسيا تفاصـيل لقائنا ، وادرك انه يستحيل على الزواج منها ، فاضطر لإجابة توسلاتها الحارة المتكررة فى طلب الرحيل ! .. ثم يختم خطابه بالتعبير عن اسفه على هذه النهاية السريعة لصداقتنا ، ويتمنى لى السعادة التى استحقهـا .. واخيرا يناشدنى الا احاول البحث عنهما او اللحاق بهما !

« يا للحماقة .. يا للسخف ! » .. صحت بلا وعى كانه يستطيع أن يسمعنى : « من اعطـاك الحق فى ان تسـلبنى إياها ؟ ! » .

وتناولت راسى بين يدى ، كى لا ينفجر ، وقــد امتلأ فجاة بخاطر واحد كشــعلة من نار : « ان اجدها .. ان اجدها باى ثمن ! » .

وقالت لى ربة البيت انهما سافرا بطريق النهر ، فاستفسرت من مكتب الملاحة عن وجهتهما .. فقيل لى انهما اخذا تذكرتين إلى « كولونى » .. فهرعت إلى البيت لأحمل حقيبتى وابحر فى اثرهما .. وفى الطريق سمعت صوتا ينادينى ، كانت « فراو لويز » تطل من شرفة بيتهــا . وقالت ان عندها رسالة لى ، فصعدت السلم ركضا ، وسلمتنى الرسالة .. قصاصة صغيرة من الورق مكتوب عليها بالقلم الرصاص بخط سريع هذه الكلمات : « الوداع .. فلن نلتقى بعد الآن .. لا تحسب انى ارحل بدافع من كبريائى ، وإنما لانى لم اجد سبيلا آخر .. لو انك قلت كلمة واحدة عندما بكيت بين يديك ليلة امس ، لبقيت .. لكنك لم تقل هذه الكلمة .. ولعل ذلك للخير . فوداعا ، إلى الأبد ! » .

كلمة واحدة ! .. يا لى من غبى ! .. لقد عدت فنطقت بهذه الكلمة عشرات المرات وانا انتحب بالامس ، قلتهــا للريح .. وقذفت بها إلى الهواء .. وكررتها وسط الحقول الموحشة .. لكنى لم اقلها لها ! لم اقل لها انى احبها ! .. عندما اجتمعت بها فى تلك الغرفة المشؤومة لم يكن حبى قد وضح فى عينى .. لم ينبثق فى قلبى بعنف لا يقاوم الا بعد ساعات ، حين رحت ابحث عنها واناديها ، مدفوعا بجزعى من احتمالات السوء .. ولكن كان ذلك بعد فوات الأوان ! .. اهذا معقــول ؟ قد لا يكون معقولا ، ولكنه الواقع ! .. الــواقع الذى الجمنى وشــل

الاعتراف على لسانى أمام نافذة جاجين فى الليلة السابقة ، فافلت من يدى آخر خيط كنت استطيع التشبث به !

وابحرت إلى « كولونى » .. فى اليوم نفســـه . وقبل ان تقلع بى السفينة وقفت أودع البلدة الهادئة التى ولد فيها حبى العظيم ، وحانت منى نظرة إلى الضفة الأخرى من « الراين » : كان تمثال العذراء ما يزال يرسل نظراتها الحزينة من خلال اغصان شجرة الدردار العتيقة !

● وفى كولونى اهتديت إلى آثار الاخوين ، علمت انهمــا سافرا إلى لندن .. فتبعتهما من فورى إلى هناك . لكنى عبثا بحثت عنهما فى العاصمة الكبيرة ، برغم انى ظللت زمنا ارفض الاعتراف بالفشل ، واواصل السعى .. فى مكابرة ، وعناد !

واخيرا .. سلمت بالهزيمة !

ولم ارهما بعد ذلك قط .. لم ار آسيا ، بل لست اعلم إذا كانت على قيد الحياة ام لا ! ؟

كل ما بقى منها فى حياتى : قصاصة من ورق .. وزهرة جافة فى درج مكتبى ، زهرة « الجيرينيام » التى قذفتها لى يوما من النافذة ، والتى ما يزال يفوح منها شذى خفيف ! .. بينما اليد التى قذفتها قد تكون تحللت منذ زمن بعيد فى القبــر .. او قد تكون الآن ملتفة حول عنق رجل .. آخر !

من يدرى ! ؟

* * *

المؤلف
(١٨١٨ — ١٨٨٣)

• والآن فلنحاول أن نجفف معا دموع الأسى على مصير هذا الحب الطاهر العظيم ، ولنضع على ذكراه باقة من سيرة خالقه المبدع ..

انه « ايفان سرجيفتش تورجنيف » ، ولد فى مدينة (أوريل) بروسيا من أسرة من سراة الريف ، وفرض عليه استبداد امه ان يتلقى علومه الأولى فى البيت .. ثم اكملها فيما بعد فى جامعتى موسكو وسانت بطرسبرج ، واخيرا فى جامعة برلين (١٨٣٩ — ١٨٤٠) .

وفى سنة ١٨٤٣ نشر قصته الأولى «الشعرية» (باراشا) ، التى ظفرت باعجاب النقاد . ثم هجر الوظيفة ليحترف الأدب . وفى تلك الآونة شغف بالمغنية المشهورة بولين جارسيا (مدام فياردو) ، الأمر الذى أغضب عليه امه فقطعت عنه عونها المالى ! .. وهكذا عاش حياة بوهيمية غير مستقرة ، حتى ماتت « الطاغية » سنة ١٨٥٠ فورث ثروتها التى جعلت منه رجلا غنيا ! .. وقد عاش طيلة حياته وفيا لولعه بمدام فياردو ، وإن كانت هى لم تبادله عاطفته ، الأمر الذى ترك فى ادبه طابعا من الأسى العميق .

وقد هجر تورجنيف الشعر إلى التاليف المسرحى ، ثم هجره بدوره إلى القصص النثرى الطويل ، فاصدر فيه هذه الروائع : الحب الأول ، آسيا ، اعاصير الربيع ، آباء وابناء .. وقد نحا فى بعضها منحى اجتماعيا اثار عليه حملة بعض النقاد ،

فدفعته حساسيته إلى هجر وطنه وقضاء بقية حياته فى مدينة النور والحرية (باريس) . وفى سنة ١٨٨٠ زار وطنه زيارة اخيرة فاستقبل فيه بترحيب كبير . وبعد ٣ سنوات غربت شمس حياته فى (بوجيفال) بقرب باريس .

وقد كان تورجنيف اول كاتب روسى تقرأ قصصه على نطاق واسع فى أوربا باسرها ، وقد قضى سنواته الأخيرة على اتصال وصداقة وثيقة مع الأوساط الأدبية الفرنسية ، ولا سيما مع «فلوبير» — مؤلف (مدام بوفارى) — وكان الجيل الناشىء من الأدباء الفرنسيين ينظرون إليه نظرتهم إلى « استاذ » .. لكنه بقدر ما كان محبوبا من هؤلاء كان مكروها من زملائه الروس ، امثال تولستوى ودستويفسكى !

وهو يعد أكثر الكتاب الواقعيين الروس نزوعا إلى الرومانتيكية فى أدبه ، وقد تأثر فى هذا الصدد إلى حد كبير باسلوب (بوشكين) و (جورج صاند) .. ورسمه للشخصيات لا يعتمد على التحليل النفسى بقدر اعتماده على الجو «الشاعرى» الذى يصاحب أشخاص القصة كالهالة ! .. واكثر ما يظهر ذلك فى شخصياته النسائية ، التى هى اقوى واكثر جاذبية من ابطاله الرجال .. ويكفى أن من بينهن : آسيا ؟!

***



كانديد

قصة «ڤولتير» الخالدة

التى سخر فيها من المجتمع والناس !

فلسفة « فولتير » .. فى اروع صورها !

● قدمت لك فى العددين (١٧،٢١) من كتابى اثنتين من قصص «فولتير» هما : « العالم كما يسير » ، و « عفاف زوجة » (كوزى سانكتا) .. اما القصة التى اقدمها لك اليوم فهى اشهر قصص فولتير على الاطلاق ، او هى القصة النموذجية التى تصور فلسفته الساخرة فى اجلى صورها . ولظروف تاليف هذه القصة ، قصة اخــرى طريفة ، وضرورية فى الوقت نفسه لفهم مرامى المؤلف من سخرياته التى حشدها فيها حشدا : ففى الفترة التى كتبها فيها فولتير ، حوالى عام ١٧٥٠ ، كانت تسيطر على افكار الفرنسيين موجة من التفاؤل ، بتاثير نظرية الفيلسوف الالمانى « ليبنتز » التى تتلخص فى ان « كل شىء على احسن ما يرام ، وان هذا العالم هو احسن عالم يمكن ان يكون ! » .. فلما حدث زلزال لشــبونة (فى نوفمبر عام ١٧٥٥) ، ثم نشبت حرب السنوات السبع فى العام التالى — وهما الكارثتان اللتان اودتا بارواح مئات الالوف من البشر — نظم فولتير قصيدة حوت بعض معانى السخط والكفران بالعناية الإلهية التى لم تجنب العالم تلك الكوارث ، سواء ما نجم منهــا عن عوامل الطبيعة او عن شرور الإنسان ! .. فلما طالع « جان جاك روسو » القصيدة كتب إلى فولتير يعاتبه وينكر عليه سخطه على الحياة .. فرأى فولتير أن يفحم النقــاد و « المتفائلين » بتاليف هــذه القصــة « كانديد » — او (التفاؤل) التى إنما يسخر فيها فى حقيقة الامر من نفاق البشر ، ومن روح الرجعية والخمول والتواكل عن الكفاح من اجل تقدم العالم وتحسين المجتمع ، بحجة ان « ليس فى الإمكان ابدع مما كان ! » .

— ١ —

● كان يعيش فى بلاد (وستفاليا) — وفى قلعة بــارون « ثندر — تن — ترونك » — شاب حبته الطبيعة جمالا .. وكان وجهه صورة صادقة لعقله ، فقد اوتى سدادا فى الراى، وبساطة لايشوبها افتعال ، ولهذا — على ما اعتقد — سمى « كانديد » .. وكان خدم القصر المتقدمون فى السن يرتابون فى انه إنما كان ابنــا غير شرعى لأخت البارون ، انجبته من سيد من الجيران !

وكان البارون من اقوى سادة (وستفاليا) نفوذا ، وكان كل قومه ينادونه بيا « مولاى ! » ، ولم يرو قط قصــة ، الا وضحك كل امرىء، تقديرا لطرافتها ! .. اما مولاتى البارونة، فكانت تزن ثلاثمائة وخمسين رطلا ، ومن ثم لم تكن صغيرة المقام والاعتبار .. وكانت ابنتهــا « كيونجوند » فى حــوالى السابعة عشرة من عمرها ، متوردة اللون ، مليحة ، سمينة ، تشتهيها الأنفس .. اما ابن البارون، فكان يبدو اهلا لان يكون له هذا الأب ! .. وكان الاســتاذ « بانجلوس » يتولى مهمة « معلم الأسرة » ، وقد اعتاد «كانديد» الشاب ان يصغى إلى تعاليمه بكل بساطة تليق بســنه وطلعته .. وقد كان المعلم « بانجلوس » يلقى دورسا فى فلســفة اللاهوت ، وما وراء الطبيعة ، ونظام الكون ، وكان يثير الاعجاب إذ يبرهن على انه ليس ثمة اثر — او مفعول — دون سبب او علة .. وان افخم القلاع فى هذا العالم — الذى هو افضل العوالم المحتمل

وجودها ــ هى قلعة البارون .. وان « مولاتى » هى خير من يحتمل وجودهن من بارونات !

وكان يقول : « من الجلى أن كل الأشياء إنما خلقت لغايات، فكان لابد من أن تخلق بحيث تؤدى إلى هذه الغايات .. لاحظوا الأنف مثلا ، فقد شكل بحيث يحمل « النظارات » ومن ثم فنحن نستعمل « النظـــارات » .. والســيقان صممت لتناســب الجوارب، ولهذا نرتدى الجوارب .. والأحجار صنعت لتنحت وتصنع منهـــا القلاع ، ولهـــذا كانت لمولاى قلعة فخمة ، لأن البارون الأعظم فى المقاطعة ، يجب أن يقطن خير دار فيها .. والخنازير وجدت لتؤكل ، ومن ثم فنحن نأكل لحم الخنزير على مدار السنة .. » .

وكان « كانديد » ينصت فى إصغاء ، ويصدق دون تردد ، ويرى أن الآنسة « كيونجوند » بالغة الحسن ، وإن لم يؤت الجراة على أن يصارحها بذلك .. وكان ــ إذ يتمشى مع نظرية المعلم ــ يرى أن أوج السعادة هو فى أن تكون بارون « ثندر ــ تن ــ ترونك » .. ويلى ذلك أن تكون الآنسة « كيونجوند » .. والدرجة التالية للسعادة أن ترى الآنســـة فى كل يوم .. والدرجة الأخيرة هى أن تستمع إلى مذهب المعلم «بانجلوس»، أعظم فيلسوف فى الاقليم كله ، وبالتالى ، فى العالم باسره !

وذات يوم ، خرجت الآنسة « كيونجوند » للنزهة فى غابة صغيرة قريبة ، فرأت خلال الأشـــجار الحكيم « بانجلوس » منصرفا إلى درس « عملى » مع وصيفة أمها ! .. ولما كانت الآنسة «كيونجوند» كبيرة الميل إلى العلوم ، فقد راحت ترقب

ــ فى انتبـــاه ــ التجربة التى كانت تجرى أمامها ، وأدركت عن يقين مدى صحة نظرية الفيلسوف فى الأسباب والمسببات .. ومن ثم عادت مشغولة البال ، مليئة النفس بالرغبـــة فى المعرفة ، وقد داخلها شعور بأنها سبب كاف لخلق « كانديد » الشـاب .. وأنه سبب كاف من أجله خلقت !

وصادفت « كانديد » أثناء عودتها ، فتضرج وجههـــا .. وتضرج وجهه .. وحيته متلعثمة ، فـــرد التحية وهو لا يعى ما يقول .. وفى اليوم التالى ، إذ نهضـــا عن مائدة الغداء ، تسللا خلف احدى الستائر .. وأسقطت «كيونجوند» منديلها، فالتقطه «كانديد» .. وامسكت بيده فى براءة ، فقبل يدها فى حرارة ، وعاطفة ، وكياســـة .. والتقت شفاهما ، فأبرقت عيونهما ، وارتجفت ركبهما .. وصادف أن مر بهما البارون ، فرأى الســبب والنتيجـــة ، فلم يتردد فى أن يحيى « كانديد » بركلات ممتازة ، ألقت به خارج أبواب القصر .. وأغمى على الآنسـة « كيونجوند » ، حتى إذا استردت وعيهـــا ، عركت البارونة اذنيها ..

ــ ٢ ــ

● هام كانديد على وجهه أمدا طويلا ، عقب طرده من جنته الأرضية ، حتى إذا جن الليل ، نام فى العراء ، كسير الفؤاد ، خاوى الأمعاء .. وعندما استيقظ فى الصباح ! كانت أطرافه قد تيبست لفرط البرد ، ولكنه جاهد حتى وصل إلى المدينة التالية. ووقف لدى باب فندق ، مرهقا ، جائعا ، نصف ميت ، وليس فى جيبه دانق .. ولم يطل به الوقوف حتى حدجه رجـــلان فى

ثياب زرقاء بنظرات مفترسة ، ثم قال احدهما للآخر : « لعمرى ايها الرفيق .. هاك شاب سليم البنية ، ذو قامة مناسبة ! » .. ثم اقتربا منه ، ودعواه فى ادب ولطف إلى الغداء ، فقال فى تواضع مهذب : « انكما توليانني شرفا عظيما ايها السيدان ، ولكنى لا املك نقودا .. » .

فصاح احدهما : « نقودا يا سيـــدى ؟ ! ان الشبان الذين اوتوا مظهرك ومواهبك لايدفعون شيئا .. اليس طولك خمسة اقدام وخمس بوصات؟ .. اذن تعال ياسيدى ، واجلس معنا، فلن ندفع حسابك فحسب، بل اننا لن ندع شابا ماهرا مثلك فى حاجة إلى مال .. فما ولد الإنسان إلا ليعين اخاه الإنسان .. » .

واقنعاه بعد ذلك بأن يتقبل منهما بعض المال ، وهو يقول : « ما اصدقكما ايهـــا الســـيدان .. هـــذا عين مذهب المعلم بانجلوس .. » .

ــ هل بك ميل عظيم لـــ ..

ــ اجل .. بى ميل عظيم للآنسة الجميلة « كيونجوند » .

ــ ما عن هذا نسالك ! .. إنما نســـالك عما إذا كنت تكن ميلا عظيما لملك البلغار !

وإذ ذكر انه لم يره قط ، ابديا العجب ، ودعواه إلى شرب نخب الملك ، فلما استجاب ، هتفا :

ــ مرحى ! .. انك الآن عضد البلغار ، والمدافع عنهم .. لقد تقرر حظك ، فانت فى طريقك إلى المجد !

.. ثم صفداه بالاغلال، وحملاه إلى الجيش حيث درب على النظام والقتال ، واعتبر ابرع زملائه ــ وهو ما يزال ذاهلا ،

لا يدرى كيف جعلوا منه بطلا ! ــ وذات يوم، عن له ان يخرج للنزهة ، دون إذن ، فاذا باربعة ابطال آخرين ، طول كل منهم ستة اقدام ، ينقضون عليه ويحملونه إلى سجن مظلم . وما لبث ان قدم إلى محكمة عسكرية، حكمت بإعدامه رميا بالرصاص .. وصادف ان مر ملك البلغار قبيل تنفيذ الحكم فيه بلحظات، فراى بثاقب بصيرته كحاكم انه لم يكن سوى شاب من الباحثين عما وراء الطبيعة، فهو جاهل بالدنيا ومن ثم تكرم فعفى عنه ..

ــ ٣ ــ

● وسار « كانديد » إلى المعركة التى شنها ملك البلغار على ملك « ابار » .. وكانت الأبواق ، والطبول ، والمدافع تعزف لحنا لم يسمع له مثيل ، ولا فى الجحيم ! .. وارتجف «كانديد» خوفا ــ كفيلسوف ــ واخفى نفسه خلال المذبحة الباســـلة قدر ما استطاع .. ثم فر إلى قرية وراء حدود « ابار » اتت عليها نيران البلغار ــ وفقا للقانون الدولى ! ــ فراى عددا من الكهول المثخنين بالجراح ، يحنون على زوجاتهم اللاتى قطعت رقابهن ، ويضمون إلى صدورهم الملطخة بالدماء صغارهم .. وكان ثمة عدد من العذارى لفظن آخر انفاسهن اذ بقر البلغار بطونهن بعد ان نالوا منهن اوطارهم .. بينما كانت ثمة نسوة محترقات يتوسلن متعجلات الموت !

واسرع « كانديد » بمغادرة هذه القرية إلى اخـــرى تابعة للبلغار ، فاذا ابطال « ابار » قد اوقعوا بها ما وقع بالاخرى من مأساة .. وهكذا ظل الفتى يتنقل بين جثث واطلال ، إلى ان غادر مسرح الحرب ، وفى كيســـه بعض القوت ، وفى قلبه

صورة الآنسة « كيونجوند » .. حتى إذا بلغ (هولندا) ، كانت مؤونته قد انتهت .. فالتمس احسانا من بعض ذوى المظهـر الوقور ، ولكنهم هددوه جميعــا إذا اتبع هذه الحــرفة بأن يرسلوه إلى دار الاصلاح ليتعلم كيف يكسب عيشه ..

واخيرا ، عطف عليه رجل كريم يدعى «جيمس»، فاصطحبه إلى داره ، ونظفه ، ومنحه غذاء وشرابا وقطعتين من النقود ، وعرض عليه ان يعلمه حرفته : نســج الحرير الفارسى الذى يصنع فى هولندا ، فارتمى كانديد عند قدميه شاكرا ممتنا ..

— ٤ —

● وفى اليوم التالى كان « كانديد » خارجا ، وإذا به يلقى متسولا كست جلده القروح ، وغارت عيناه ، وتآكل طــرف انفه ،واعوج فمه إلى جانب ، واسودت أسنانه ، وقد راح يعطس ويسعل فى عنف ، وكلما حاول ان يبصق ، ســقطت إحدى اسنانه ! .. فدفع «كانديد» إلى المتسول قطعتى النقود اللتين كان «جيمس» الطيب قد منحه إياهما ، وهو موزع بين العطف والتقزز .. فتطلع إليه المشوه متفرســا ، ثم ذرف الدموع، واحاط عنقه بذراعيه، هاتفا : « واسفاه ! .. الست تعرف عزيزك بانجلوس ؟ » .

ذهل «كانديد» ، ثم انهال عليه بالاسئلة ، ولكن بانجلوس كان ضعيفا واهن القوى ، فقــاده الفتى إلى حظيرة جيــاد « جيمس » ، واحضر لــه بعض القــوت .. وما ان انتعش « بانجلوس » قليلا ، حتى اخذ « كانديد » يسأله عن الآنسة « كيونجوند » ، فأجابه ، دون تمهيد : « لقد ماتت ! » .. وإذ

ذاك سقط « كانديد » مغشيا عليه ، حتى إذا استرد وعيه بعد هنيهة ، قال مرددا : « ماتت ! .. ولكن كيف .. بأى مرض ماتت ؟ »

ـــ لقد بقر جنود البلغار بطنها ، بعد أن هتكوا عرضها .. وحين حاول ابوها الدفاع عنها ، قتلوه بدوره ، كما قطعوا امها إربا ، وفعلوا باخيها ـــ تلميذى المسكين ـــ ما فعلوه باخته .. أما القلعة ، فلم يتركوا فيها حجرا على حجر ..

واغمى على « كانديد » مرة اخرى ، حتى إذا افاق ، روى كل ما جــرى له هو بدوره ، وتســاءل عن تفسير أســتاذه الفيلسوف للنكبات المروعة التى اصابت المعلم فى جسده .. فاجاب هذا : « كان الحب هو الســبب .. الحب ، متعــة المخلوقات الآدمية ، وسر بقاء الكون ! .. لابد إنك يا عزيزى «كانديد» تذكر «باكيت» ، الغانية الحسناء التى كانت وصيفة لبارونتنا النبيلة . لقد ذقت فى احضانها النعيم ، الذى لم يلبث أن ادى بى إلى عذاب الجحيم ، كما ترى .. فقد كانت تحمل عدوى المرض ـــ ولعلها ماتت به بعد ذلك ـــ وقد التقطته من راهب متعلم ، التقطه بدوره من كونتة عجوز اصيبت من قائد فرسان اخذه عن مركيزة منيت به من وصيف نقله عن جيزويتى نكب به من احد الذين رافقوا كريستوفر كولمبس فى مغامرته فى الدنيا الجديدة !»

ـــ اواه يا بانجلوس ! .. اليس الشيطان مبعث كل هذا ؟

ـــ لا، بل انه كان شيئا لا مفر منه، عنصرا ضروريا فى تطور الدنيا نحو التحسن .. لأنه لو لم يصــب به كولمبس ـــ فى

إحدى جزر أمريكا ـ ما توصلنا إلى معرفة الكاكاو والكينا !
ـ ولكن .. لابد من ان تشفى منه !

ولجأ « كانديد » إلى كرم « جيمس » متذللا ، متوسلا ، حتى قبل ان يأوى الدكتور « بانجلوس » فى داره ، وان ينفق على علاجه .. ولم يفلح العلاج الا بعد ان فقد بانجلوس إحـــدى عينيه، وإحدى اذنيه ، وعهد إليه «جيمس» بان يتولى «تسجيل» حساباته. .وان هما إلا شهران،حتى عنت له رحلة إلى لشبونة، فاستصحب معه الفيلسوفين .. وفيما كانوا فى البحر ، راح بانجلوس يشرح نظريته لجيمس مبينا كيف ان كل شيء قد خلق بحيث لا يمكن ان يكون خيرا مما هو . لكن جيمس عارضـــه قائلا : « لابد ان الجنس البشرى قد انحرف فى بعض الأمور عن براءته الأولى ، لأن الناس لم يخلقوا ذئابا ، ومع ذلك تراهم يطارد احدهم الآخر كما تفعل تلك الضوارى ! .. إن الله لم يمنحهم مدافع ولا نصال ، ومع ذلك فقد صـــنعوا المدافع والنصال ليقضى كل على الآخر .. »

فأجاب الفيلسوف : « كل هذه ضرورات لا محيص عنها ، لأن المصائب الخاصة ، فوائد عـــامة .. ومن ثم فكلما زادت المصائب الفردية ، ازداد الخير العام !

وفيما هما يتجادلان ، هبت عاصفة ، والسفينة على مرأى من مرفأ (لشبونة) ..

— ٥ —

● اجتاحت العاصفة السفينة ، فأخذ الركاب يرتطم بعضهم ببعض .. وذهل نصفهم ، بينما راح الآخـــرون يصرخون ،

ويصلون .. وما لبث ان انهمك الجميع فى نزح المياه من السفينة، ولكن الرياح العنيفة مزقتها شر ممزق .. وانقض ملاح شرس على « جيمس » فألقاه ارضا ، ولكنه ما لبث تحت عنف الريح ان هوى ، فتعلق بالصارى المكسور ، وإذ ذاك خف «جيمس» الطيب القلب لمساعدته .. ولكنه سقط فى الماء اثناء المحاولة ، فلم يعبأ به الملاح! .. ولمح «كانديد» الرجل الذى احسن إليه ، والماء يوشك ان يبتلعه ، فهم بأن يقفز لانقاذه ، لولا ان منعه بانجلوس، قائلا ان ساحل لشبونة لم يخلق إلا ليغرق «جيمس» عنده ! .. وفيما هو يقنعه بالحجة ، انهـــار آخـــر جزء من السفينة ، وغرق جميع من كانوا عليـــه ، اللهم إلا بانجلوس وكانديد والملاح الشرس .. واخذ هـــذا يســـبح حتى بلغ الشاطىء ، اما الآخران فتعلقا بلوح من الخشـــب حملهما فى النهاية إلى البر . وما ان استردا انفاسهما ، حتى سارا إلى لشبونة ، وهما يأملان ان يكفى ما تبقى معهما من مال لان يقيم اودهما فترة ..

على انهما سرعان ما احسا بالارض ترتجف تحت اقدامهما، وبماء البحر يفور ويغلى .. واندلعت الحرائق فى المدينـــة ، وانهارت الدور، فدفن تحت اطلالها ثلاثون الف نسمة من اهلها ! ..وتحدى الملاح الشرس الموت ، فانطلق فى غمرة الدمار يبحث عن اسلاب ينهبها !

واصيب « كانديد » بصدمة من حجر وقع عليه ، فاستلقى على الارض جريحا، حتى اسعفه بانجلوس بماء من نبع قريب. وفى اليوم التالى وجدا بين الاطلال شيئا من القوت ، واخذا يعينان الاهالى على إنقاذ جرحاهم ومصـــابيهم ، وبانجلوس

بواسيهم قائلا : « كل مايجرى إنما يجرى فى سبيل خير الغايات .. » . وكان إلى جانبه رجل ضئيل الجسم ، فى ثوب أسود كالذى كان يرتديه اعضاء «محاكم التفتيش»، فقال له: « لعلك لا تؤمن اذن يا سيدى بالخطيئة الأصلية الأولى.. إذ لو كان كل شىء قد قدر لخير الأغراض ، لما تردى الإنسان فى الخطايا ، او نزل به عقاب ! » .

— بل ان زلة الإنسان واللعنة التى حاقت به إنما تدخلان فى نطاق التطور للوصول إلى خير دنيا .

— اذن فانت لاتؤمن بان اعمال الإنسان إنما تصدر عن إرادة حرة ؟ !

— ان الإرادة الحرة تتمشى مع الضرورة المطلقة .. إذ كان من الضرورى ان نكون احرارا ..

واشار الرجل من طـرف خفى إلى تابع له .. فقبض على بانجلوس وتلميذه !

— ٦ —

● ورأى الحكماء بعد الزلازل، ان انجع وسيلة لدرء الخراب عن البلاد ، هى الترفيه عن الناس بايقاد نار كبيرة يحرقون فيها بعض الأفراد احياء ، فى احتفال كبير ! .. وكان بانجلوس ممن اختيروا ليحرقوا ، لأنه جاهر بما يعتقد .. أما « كانديد » فقد تقرر ان يجلد بالسياط علنا ! وإذ حان يوم الحفل الرهيب ، شنق بانجلوس بدلا من ان يحرق ! .. بينما سـيق كانديد فى موكب ، والسياط تنهال عليه .. وحدث فى اليوم ذاته ، زلزال

اثار ذعرا وفوضى ، فأخذ كانديد يرتجف ، مذهولا ، مفزوعا ، وهو يقول لنفسه : « إذا كانت هذه خير دنيا ممكنة ، فما حال العوالم الأخرى ؟ »

وفيما هو هائم على وجهه ، اقتربت منه عجوز وقالت له : « تشجع يابنى ، واتبعنى ! » .. فتبعها إلى دار متداعية ، وهناك اعطته وعاء به معجون لعلاج جراحه ، وقادته إلى سرير نظيف ، عليه حلة من الثياب ، وقدمت له طعـاما وشرابا .. واستمرت تعالجه وتطعمه على هذا النحو ثلاثة ايام .. وفى الليلة الرابعة جاءته لاتحمل طعاما، وسألته أن يتبعها فى صمت .. وبعد أن سارت به زهاء ربع الميل خارج المدينة ، انتهت به إلى دار منعزلة محوطة بحدائق وخنادق ، فطرقت العجوز الباب ، وإذا به يفتح فى الحال ، فصعدت به سلما إلى حجرة صغيرة ولكنها انيقة الرياش .. واجلســته على اريكة ، ثم غادرته واغلقت الباب .

خيل لكانديد انه فى حلم غريب .. وما لبثت العجوز أن عادت تسند فى عناء شابة لا تكاد تقوى على الاستواء على قدميها . وكانت ذات مظهر مهيب جليل ، ترتدى ثيابا ثمينة ، وقد تزينت بالجواهر البراقة .. وإذ اقتربت من الشـــاب ، ازاحت بيد مرتجفة نقابا كان مسدلا على وجهها : ما كان أسعدها من لحظة! .. وياله من مفاجأة ! كانت « كيونجوند » امامه .. بلحمهـا ودمها ! .. فهوى على قدميها .. بينما تهالكت على الاريكة فاقدة الرشد !

وعندما افاقا، شرعا يتسامران، فتركتهما العجوز وانصرفت .. وإذ ذاك روى كانديد لكيونجوند ما ابلغه إياه بانجلوس من

عدوان جنود البلغار عليها ، فبينت له انها لم تمت وان كانوا قد اصابوها فى بطنها .. وسالته ان يروى لها ما جرى له من احداث .. فلما فرغ من قصته اخذت تروى له قصتها هى :

- ٧ -

● شرعت « كيونجوند » فى روايتها فقصت كيف اغار البلغار على قلعة ابيها ، وكيف سطا عليها جندى منهم ، فلما قاومته طعنها اسفل بطنها .. وفاجاه ضابط وهو منهمك فى عدوانه البهيمى فقتله ، وحملها إلى معسكره كاسيرة .. إلى ان افلس يوما على مائدة الميسر ، فباعها إلى يهـودى يدعى « دون ايساتشار » كان يتجر فى اسواق هولندا والبرتغال . وكان مدنفا فى هوى النساء ، فابدى لها كل عطف ، ولكنه لم يستطع ان ينال منها شيئا .. حتى إذا سافر إلى البرتغال ، حملها معه ، واسكنها هذا البيت . وذات يوم رآهـا كبير محققى محاكم التفتيش ، فعرض على اليهودى ان ينزل له عنها ! ولما كان « دون ايساتشار » صاحب نفوذ مالى كبير فى البلاط الملكى ، فقد استطاع ان يناجز كبير المحققين .. بيد انه خشى ان ينفذ فيه تهديده بأن يحرقه بتهمة الكفر ، فاتفق معه على ان يتقاسما التردد على البيت : استاثر اليهودى بأيام الاثنين ، والاربعاء، والسبت، على ان تكون بقيةالايام من نصيبالآخر!

واستطردت كيونجوند تقول : « .. ودام هذا الاتفاق ستة شهور ، ولكنه لم يخل من منازعات بصدد الوقت الذى يقع بين ليل السبت وصباح الاحد ، ومن حق اى منهما يكون ! .. إلى انجاءت الزلازل، وطاب لسيدى المحقق ان يقيمالاحتفال.

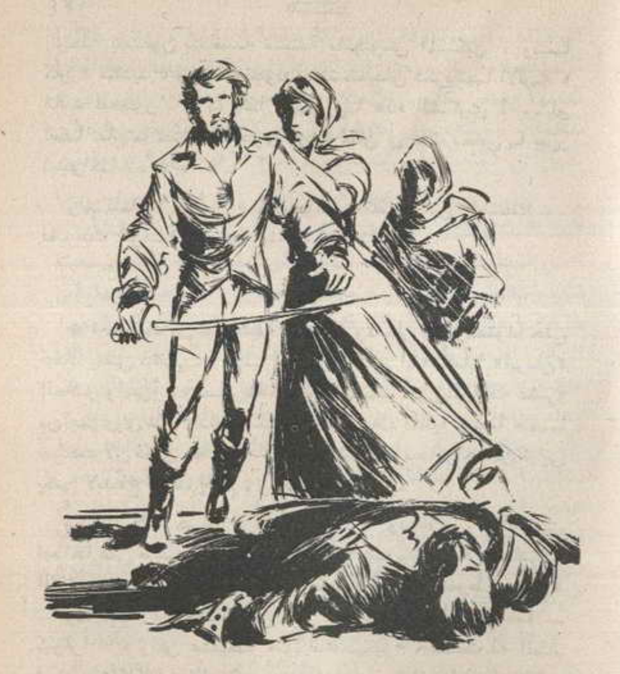
وقد هزنى مراى اليهود وهم يحرقون احياء .. وذهلت حين رايت بانجلوس فى الموكب ، ففركت عينى ، وانعمت النظر ، فاذا هو معلق فى المشنقة .. واغمى على ، حتى إذا استعدت وعيى ، رايتك عاريا ، وكان هذا اقصى ما احتملت من ذعر واسى ـ واصارحك ان بشرتك انصع بياضا ، وابدع منظرا من بشرة الضابط البلغارى ـ واردت ان اصرخ ، ولكن صوتى خاننى . وبعد ان جلدوك بقسوة ، قلت فى نفسى : « لشـد ما خدعنى بانجلوس حين اخبرنى ان كل شىء فى هذه الدنيا هو خير ما يمكن ان يكون ! » .. وفى حيرتى وقنوطى ، عاودتنى ذكرى مصرع ابى وامى واخى ، وعدوان الجندى البلغارى ، والجرح الذى خلفه تحت بطنى .. وعبوديتى .. فحمدت الله ان ساقك إلى المكان الذى انا فيه ، بعد كل هذه المحن .. فعهدت إلى العجوز التى ترافقنى بان تاتى بك .. » .

وتناول الحبيبان العشاء معا ، ثم عادا إلى جلستهما على الاريكة .. وفى هذه الجلسة فاجاهما « دون ايساتشار » ، إذ كان اليوم سبتا !

- ٨ -

● انقض اليهودى على فتانا الويستفالى مشهرا خنجرا مدببا ، فاستل « كانديد » سيفه ، وسرعان ما القى اليهودى جثة هامدة ، فصاحت الفتاة : « يا للعـذراء ! .. ما الذى سيحيق بنا ؟ » .

وفيما كانا يتدبران الموقف مع العجوز الأمينة ، اقبل كبير المحققين ـ إذ كانت الساعةالواحدة من صباحالاحد ـ وادرك كانديد الخطر المحدق ، فقال لنفسه : « هذا الرجل كان السبب



فاستل « كانديد » سيفه ، وسرعان ما ألقى اليهودى
جثـــة هامـــدة ..

فى اننى جلدت بقسوة .. وهو غريمى ، وقد بدات اغمس يدى فى الدم ، فلا داعى للتردد » .. وسرعان ما اورده مصير اليهودى !

وانقذت العجوز الموقف ، فذكرت أن فى الحظيرة ثلاثة جياد اندلسية ، كاملة السروج والعتاد .. ولم يلبثوا ان انطلقوا على ظهور الجياد فى طريقهم إلى (قادش) .. فلمـــا بلغوا بلدة « اراسينا » القابعة وسط جبال « سييرا مورينا » نزلوا فى فندق البلدة .

ولم يكد الثلاثة يستقرون فى الفندق ، حتى اكتشـــفت « كيونجوند » سرقة ما كانت تحمل من حلى وجواهر ادخرتها من هدايا اليهودى وكبير المحققين !.. واتجهت شكوك العجوز إلى قس رافقهم فى بعض الطريق ، فقال كانديد: «لطالما علمنى بانجلوس ان متاع الدنيا مشاع بين الناس اجمعين .. ولكن كان يجدر بالقس ــ طبقا لهذا المبدأ ــ أن يترك لنا ما يكفينا الى نهاية رحلتنا ! » .

واقترحت العجوز أن يبيعوا جوادها ، على أن تركب وراء مولاتها.. فباعوه بثمنبخس، وبلغوا أخيرا مدينة(قادش)،فاذا باسطول مهيأ ، وإذا بجنود تحشد لمحاربة رهبان «الجيزويت» فى « باراجواى » لاتهامهم بإثارة إحدى قبائل الهنود الحمر ضد ملكى اسبانيا والبرتغال .. وعرض « كانديد » على قائـــد الجيش الأسبانى بعض ما تعلمه من فنون البلغار الحربية ، فعهد إليه القائد بفصيلة من المشـــاة .. وهكذا صـــعد و « كيونجوند » ، والعجوز ، والجـــوادان الأندلســـيان ، وخادمان إلى سطح إحدى سفن الأسطول .. واخذوا خلال

الرحلة يتسلون بمناقشة فلسفة بانجلوس المسكين . وبينما كان « كانديد » و « كيونجوند » يستعيدان ذكرياتهما الأليمة ، قالت العجوز : « ما هذا التذمر وما هذه الشكوى ! .. لو انكما عانيتما نصف ما جرى لى ، لكان فى ذلك بعض ما يبرر شكواكما .. » .

ولم تتمالك الآنسة « كيونجوند » نفسها من الضحك .. فشرعت الوصيفة تروى لهما ما اصابها :

— ٩ —

● « ما كنت من قبل كليلة البصر ، ولا كان أنفى معقوفا حتى ليكاد يمس ذقنى .. يجب ان تعرفا اننى ابنة البابا «ايربان» العاشر واميرة « بالسترينا » ، وقد نشأت حتى الرابعة عشرة من عمرى فى قلعة اذا قيست بها قلاع نبلاء المانيا جميعا ، لما صلحت لان تكون حظائر ! .. وكان ثمن الثوب الواحد من ثيابى يكفى لابتياع نصف إقليم (وستفاليا) . » .

وكانت كلما كبرت ازدادت جمالا ، وذكاء .. واستوى نهداها على صدرها يوحيان للرجال بالحب — حتى ان الخادمات اللاتى كن يغيرن لها ثيـــابها ، كن ينتشـــين لفرط بهائها ! — وما لبثت ان خطبت إلى امير جميل من امراء « ماسا — كرارا » ، ولكن عشيقته ، وكانت مركيزة ، دست له السم فى قدح « كاكاو » ، لم يكد يحتسيه حتى سقط ميتا ! .. ورات ام الخطيبة المحزونة ان تنتقل بها إلى « جايتا » ، بيد ان بعض القراصنة هاجموا المركب ، واستولوا عليها ، وسطوا على اعراض من كن فيها ، ثم حملوهن إلى مراكش ، فاذا بغرماء

لهم يهاجمونهم .. ودارت معركة حامية ، عنيفة ، مزقت خلالها ام صاحبتنا اربا .. حتى إذا انتهت المعركة ، وجدت ابنة البابا نفسها وسط ركام من الجثث ، ضعيفة ، خائرة القـــوى ، جائعة .. وافاقت فى النهاية على حركة فاذا بشخص إيطالى جميل .. فأسعدها أن تسمع بعد هذه الأهوال لغة قومها ..

واصطحبها الشاب الإيطالى إلى الجزائر ، حيث باعها لأحد الحكام الذى اتخذ منها جارية .. وهناك اصيبت بالطاعون الذى اجتاح البلاد إذ ذاك .. وما أن شفيت منه ، حتى بيعت لتاجر نقلها إلى تونس ، حيث باعها إلى آخر صـــحبها إلى طرابلس ، ثم باعها فى الإسكندرية .. ومنها انتقلت إلى ازمير ، ثم إلى القسطنطينية حيث ابتاعها ضابط تركى ضـــمها إلى حاشيته حين اوفد للدفاع عن « آزوف » التى كان الروس يحاصرونها .. ولم يلبثوا ان اجتاحوها ، واعملوا سيوفهم فى كل من كانوا فيها ، فلم تبق سوى القلعة التى كان الضـــابط معتصما بها مع حاشيته ، فشدد الروس الحصار عليها ، حتى تفشى الجوع بين سكانها .. وانتهى الراى إلى ان يقتلوا النساء ليقتاتوا بلحومهن .. ولكن حكيما بين القوم اقترح ان يبداوا اولا باقتطاع اجزاء من ارداف النساء .. وهكذا فقـــدت الأميرة الإيطالية احد ردفيها ! .

وما لبث الروس ان استولوا على الحصن .. وتصادف ان كان معهم طبيب فرنسى ، عنى بالفتاة التعسة وزميلاتها ، إلى ان شفين فنقلن إلى موسكو .. وهناك وقعت من نصيب رجل استخدمها فى العناية بحديقته ، وكان يجزيها كل يوم عشرين سوطا .. واخيرا قدر لها أن تهرب ، فراحت تنتقل من بلد إلى

آخر ، مكتسبة قوتها من العمل كخادم ، وقد اخذت الســن تتقدم بها .. وكان شقاؤها لا مزيد عليه ، حتى أنها فكرت اكثر من مرة فى الانتحار .. ووقعت فى النهــاية فى يــدى « دون ابساتشار » ، اليهودى الذى ابتاعها واتخذها وصيفة للآنسة « كيونجوند » ..

- ١٠ -

● وصلت السفينة اخيرا إلى « بونس ايرس » ، فهبطت « كيونجوند » و « الكابتن كانديد » والعجوز إلى البر ، وسعوا ليقدموا تحياتهم إلى الحاكم «دون فرناندو فيجورا اى لامبوردوس اى سوزا » .. وكان الرجل فى أوج الأبهة والزهو ، ولكنه كان جد مولع بالنساء ، فلما راى « كيونجوند » سألها إن كانت زوجة « الكابتن » ؟ .. وابى نقاء قلب « كانديد » عليه ان يسطو على الحقيقة ، فاجاب : « لسوف تشرفنى الآنســة كيونجوند بالزواج منى ، وانا لنلتمس من سعادتكم أن تشرفوا الاحتفال بوجودكم .. » .

فأخذ الحاكم يبرم شاربيه ، وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة ، ثم امر الكابتن كانديد بأن يذهب لتفقد فرقته .. وبقى مع الآنســة « كيونجوند » فشرع يبثها لواعج حبه ، عارضا عليها ان تقبل الزواج منه ! فاستأذنت متعللة بالرغبــة فى الاســتجمام ، واستشارت المراة العجوز التى قالت لها : « يجب ان اصارحك بأننى لو كنت مكانك ، لمنحت الحاكم يدى دون ادنى تردد ، وبذلك اضمن للكابتن كانديد الباسل حظا ومستقبلا ! » .

وفيما هما تتحدثان ، دخلت الميناء سفينة صغيرة عليها احد المحققين واعوانه . وكانت الامور قد جرت كما يلى : كان

الراهب الذى سرق حلى « كيونجوند » وجواهرها قد شرع فى بيعها فى لشبونة ، فاذا الذى عرضها عليه يعرف أنها كانت ملكا لكبير المحققين، فوشى به.. وقضى على الراهب بالإعدام، ولكنه قبل ان يشنق اعترف بأنه سرقها ، ووصف المــراتين والشــاب ، فتتبعهم المسئولون إلى قادش ، ومنها إلى « بونس أيرس » .

واذيع فى المدينة ان المحقق قد جاء وراء قتلة كبير المحققين.. وادركت العجوز فورا ما كان هناك ، فقالت لكيونجوند : «ليس بوسعك ان تفرى ، ولكن ليس ثمة ما تخشينه ، فأنت لم تكونى قاتلة كبير المحققين .. كما ان الحاكم يحبك ! » .. ثم هرعت إلى « كانديد » وقالت له : « اسرع .. فمنذ الآن ستكون مهددا بأن تحرق حيا ! » .

ولم يجد « كانديد » مفرا من المبادرة إلى الهرب ..

- ١١ -

● كان « كانديد » قد صحب معه من قادش خادما من ذلك النوع الذى يصادفه المرء على سواحل اسبانيا وفى المستعمرات، فهو من اصل اختلط فيه الدم الاسبانى بدماء المستعمرات ، وقد تقلب على كل الأعمال . وكان يدعى « كاكامبو » ، وقد أحب « كانديد » إذ وجده بالغ الطيبة .. لذلك لم يكد يسمع نصيحة العجوز حتى اسرع يسرج الجوادين الأندلسيين، ويهيب بسيده ان يبادر إلى الفرار .. فلما وجده مترددا ، بدافع الخوف على « كيونجوند » ، قال له :

— دعها تتصرف ، فالنساء لا تعوزهن الحيلة قط !

— ولكن .. إلى اين نذهب ؟

— إنك كنت مقبلا لتحارب جزويت باراجواى ، فدعنا نذهب لنحارب فى صفوفهم ، وإنى لأعرف الطريق خير معرفة ولسوف يبتهجون بأن ينضم إليهم ضابط خبر اساليب البلغار .

وما ان بلغا الحدود الاولى ، حتى صاح «كاكامبو» فى حارس الخط الأمامى بأن الضابط جاء ليتحدث إلى القائد العام ، فابلغ الحارس النبأ ، وما لبث ان جـرد القـادمان من سـلاحهما وجواديهما ، واقتيدا بين صفين من الجنود الشاكى السلاح، إلى اقصى المعسكر ، ثم دعيا للانتظار .. وإن هى إلا برهة ، حتى اقتيد « كانديد » إلى قاعة وسط حديقة ، قامت على عمد من الرخام الأخضر والذهبى ، وكسـتها الكروم والنبـاتات الزاحفة .. وقد أوى إليها « الأب القائد » يستجم .. وكان من رهبان الجزويت !

وإذ علم « الأب القائد » ان « كانديد » من اصل المانى ، سأله عن الاقليم الذى ينتمى إليه ، فما ان سمع انه ولد فى قلعة « ثندر — تن — ترونك » حتى أبدى دهشته .. وإذا المناسبة تكشف عن ان الراهب القائد لم يكن سوى شقيق الجميلة « كيونجوند » ، الذى ظن الجميع ان البلغار قد ذبحوه يوم هاجموا قصر ابيه !

وصرف « الأب القائد » اتباعه ليخلو إلى « كانديد » يسمع انباءه .. فعرف ان شقيقته ما زالت على قيد الحياة فى « بونس ايرس » ، وذكر كيف ان راهبا من الجزويت عنى بدفن القتلى فى قلعة ابيه عقب فتك البلغار باهلها ، فعثر عليه فاقد الرشد بينهم ، وعنى به ، وادخله مذهبه ، حتى اتيح له ان يفد على (باراجواى) مع من كان يفد عليها من رهبان الجزويت .

وقال اخيرا : « اذن ، فاختى العزيزة كيونجوند مع حاكم (بونس ايرس) ؟ .. لعل الحظ يواتينا يا عزيزى كانديد ، فندخل المدينة شاهرى السيوف وننقذها » .

فاجاب كانديد : « هذه اقصى امنياتى .. لاننى ارجو ان اتزوج منها » .

— يا لك من وقح ! .. انت !؟ .. اوجـدت من الجـراة ما يطمعك فى الزواج من اختى ؟!

وعبثا حاول « كانديد » ان يذكره بانه انقذها .. وبان استاذهما « بانجلوس » كان يقول ان الناس سواسية ، فان الراهب القائد لم يزدد إلا ثورة ، حتى اضطر « كانديد » فى ثورة الغضب إلى ان يضربه بسيفه .. فقتله !

وخف « كاكامبو » إلى نجدته ، فالبسه ملابس الراهب ، وهيا له اسباب الفرار !

— ١٢ —

● استطاع « كانديد » وخادمه ان يعبرا الحدود قبل ان يفتضح مقتل الراهب الجزويتى ، فانطلقا فى ارض غريبة ، لا يكادان يستبينان لنفسيهما فيها طريقا .. وبلغا اخيرا بستانا جميلا ، فهبطا فيه ، واخذ « كاكامبو » يغرى سيده ليصيب من الطعام الذى قدمه قسطا .. واخذت الشمس تجنح للمغيب، وفجاة ، سمعا صرخات نسائية ، فاذا بشابتين عاريتين تجريان وفى اثرهما قردان يعضان اردافهما ! .. واسرع « كانديد » إلى بندقيته فاردى القردين .. لكنه سمر فى مكانه ماخوذا إذ

راى الفتاتين تحتضنان القردين القتيلين وتغسلان جراحهما بدموعهما وهما تندبانهما .. فقال « كاكامبو » :

ــ لقد اظهرت براعة يا سيدى فى الرماية ، ولكن .. اتعلم إنك قتلت حبيبى هاتين السـيدتين ! .. اراك تدهش لكل شىء .. لماذا تستغرب ان يُكون فى الدنيا بلد يحظى القردة فيه باحلى عواطف السيدات؟ ان الإنسان ينحدر من سلالة القرود، كما انحدر انا من سلالة الأسبان !

واوغلا فى احد الأحراش ، فجن عليهما الليل ، وناما .. حتى إذا استيقظا ، ادهشهما انهما لم يكونا يقـويان على الحراك ، فان « الاوريون » ــ اهل تلك المنطقة ــ قيدوهما بحبال من الياف الشجر ، إذ شكتهما إليهم الفتاتان .. واحاط بهما خمسون من « الاوريون » العرايا ، مسلحين باقواس ونشاب ، وهراوات ، وفؤوس من الصوان . وكان بعضهم منهمكا فى إيقاد نار تحت قدر كبيرة ، والكل يصيحون إذ ظنوا « كانديد » من الجزويت ، فعقدوا العزم على ان ياكلوه ! ..

وهتف « كانـــديد » فى اسى : « اواه ! .. ترى ما الذى كان يقوله المعلم « بانجلوس » لو راى هذه الفطرة « النقية » ؟ ! كل شىء طيب وخير .. قد يكون هذا صحيحا ، ولكنى ارى من القسوة ان افترق عن الآنسة كيونجوند ، وان اكون طعاما لهؤلاء المتوحشين ! » .

ولكن « كاكامبو » ، الذى لم يكن ليفقد قط حضور بديهته فى اوقات الشدة ، سرى عنه ، وقال انه يعرف شيئا من لغة القوم ، ومن ثم تحول إليهم قائلا : « لعلكم تظنون ايها السادة إنكم ستحظون باكل واحد من الجزويت ــ ولو كان الامر كذلك

لما كان هناك باس ، فالواقع ان سنة الطبيعة تعلمنا ان نقتل جيراننا ، ومن ثم نجد هذا متبعا فى العالم كله ، وإذا كنا لا ناكل لحم البشر ، فلان لدينا ما هو افضل منه ! ــ على انكم لا تبغون بالتاكيد ان تاكلوا اصدقاءكم ، فان مخدومى هذا صديق لكم ، ومدافع عنكم ، فى حين إننى من ابناء بلادكم .. فان شئتم ان تستوثقوا فاحملوا رداءه هذا إلى اول خطـوط الجزويت ، وسلوهم عما إذا كان مخدومى لم يقتل احد ضباطهم ؟ !

وراق الاقتراح للاوريون ، فاوفدوا اثنين منهم ، لم يلبثوا ان عادوا يؤكدون صدق « كاكامبو » .. وإذ ذاك اطلقوا سراح الاسيرين ، واكرموهما ، فصاح « كانديد » : « لو إننى لم اقتل شقيق الآنسة كيونجوند، لما كان ثمة مناص من ان أؤكل حيا ! ».

ــ ١٣ ــ

● قرر « كانديد» ان ياخذ بنصيحة خادمه، فيسعيان للفرار إلى فرنسا .. ولكن الجبال والانهار والوهاد واللصـوص والمتوحشين كانت عراقيل فى طريقهما .. كما نفق جواداهما لفرط الارهاق ، ونفدت مؤونتهما ، ثم انتهيا اخيرا إلى نهـر يقوم على ضفافه نخيل جوز الهند .. ووجدا قاربا ، فملاه بجوز الهند، وانطلقا فى النهر على غير هدى، مسلمين نفسيهما للاقدار .

وكان النهر يمر فى احد المواضع تحت صخرة شـاهقة ، فاستسلم صاحبانا للتيار الذى انطلق بالقارب بسرعة وضجة رهيبتين .. وبعد اربع وعشرين ساعة لاح لهما ضوء النهار.. لكن القارب تحطم ، فراحا يتنقلان من صخرة إلى اخرى ، حتى بلغا سهلا بهيجا ، يانع الخضرة ممهد الطرق .. وصادفا عند

مدخل اول قرية فى طريقهما اطفالا فى ثياب مزركشة بالقصب والذهب — حتى لقد خالاهم اولاد ملوك — ثم صادفا حشدا كبيرا ، وسمع « كاكامبو » القوم يتحدثون بلغة اهل « بيرو » ، الذين تنتمى إليهم امه .. وشد ما عجب صاحبانا إذ عرفا ان كل المطاعم والفنادق فى ذلك البلد بالمجان ، تنفق عليها الحكومة ! وتبينا قطعا كبيرة من الذهب مبعثرة فى الطرق ، وعلما من الناس انهم ينظرون إليها كما لو كانت حصى لا قيمة له !

واعرب « كاكامبو » عن فضوله بآلاف الاسئلة وجهها إلى صاحب الفندق ، الذى آثر ان يحيله على شيخ مسن يعتبر اعلم رجال المملكة . وكان بيته بسيطا : فالباب من فضة خالصة ، والسقف من ذهب مصنوع بذوق جميل ، والجدران مرصعة بالأحجار الكريمة ! وقال الشيخ انه فى العام الثانى والسبعين بعد المائة من عمره ، وان هذه المملكة هى الموطن الاصلى لعشيرة « انكاس » ، وقد خلفوها ليغزوا بلادا اخرى ، فغلبوا على امرهم ، وافناهم الاسبان ، ومن ثم امر من بقى من الامراء البقية الباقية من رعاياهم بان لا يبرحوا المملكة ، فظلوا على نقاء نفوسهم وهنائهم .. وقد اقترب بعض الرواد من حدود المملكة ولكنهم لم يصلوا إليها .. على انهم حدسوا ما كانت عليه ، فاسموها « الدورادو » .. اى بلاد الذهب !

وساله « كانديد » عما إذا كان لهم دين ، فاجاب الشيخ بانهم يعبدون «الله» الواحد ، ولكنهم لا يرفعون إليه الدعوات، فليس هناك ما يسالونه اياه ، لانهم اوتوا كل شىء ! .. وليس لديهم كهنة ولا رهبان يثيرون الخلافات ويدبرون المؤامرات ، ويحاولون فرض نفوذهم على الناس ! .. وكان « كانديد »

يصغى إلى كل هذا الحديث وهو يقارن فى ذهنه بين هذه البلاد السعيدة ، وبين « وستفاليا » موطنه ..

وما لبث الشيخ ان امر بعربة شد إليها ستة من الغنم لتقل الضيفين إلى قصر الملك . ولعل القارىء قد ادرك من الاوصاف السابقة ما كان عليه هذا القصر من بذخ وفخفخة .. واستقبلت الضيفين عشرون عذراء جميلة، حملنهما إلى الحمام، ثم لففنهما فى اثواب من ريش البلابل ، واقتيدا بعد ذلك إلى جناح الملك، بين صفين من الموسيقيين، تالف كل منهما من الف موسيقى !.. وانباهما ضابط كبير بان العادة جرت على ان يعانق الزائر الملك ويقبل وجنتيه ..

وتلقاهما الملك فى إكبار بالغ ، واستبقاهما للعشاء .. وفى انتظار ذلك امر بان يطاف بهما فى المدينة ، فرايا بنايات عامة تطمح باعاليها إلى السحاب ، ونافورات ، وعيون لماء الورد، وقد رصفت جوانب الطرق باحجار ينبعث منها عبير القرنفل والقرفة ! .. ودهش « كانديد » إذ عرف ان ليس فى البلاد محاكم او سجون .. وطرب حين شاهد بها قصرا للعلوم !

وقضى الشابان شهرا فى ضيافة الملك ، ولم يكن يعكر على « كانديد » هناءه سوى شوقه إلى محبوبته « كيونجوند » .. وكان يقول لكاكامبو : « لو بقينا هنا ، لما اختلفنا عن الآخرين . اما لو عدنا إلى دنيانا ، مصطحبين اثنى عشر خروفا — فقط — من خراف « الدورادو » ، محملة « بحصى » هذه البلاد ، لصرنا اغنى من ملوك اوربا جميعا ! » .

وراقت الفكرة لكاكامبو ، فتحمس لها، ومن ثم استأذنا الملك فى الرحيل . واشفق الملك عليهما من طريق النهر المحفوف

بالخطر ، وامر الموكل بالآلات فى المملكة ان يصنع لهما آلة تحملهما إلى ذروة احد الجبال الشاهقة المحيطة ببلاده . وسمح لهما بان يحملا معهما ما شاءا من تراب بلاده وحصاها ، وهو يعجب من شغفهما بهذا التراب والحصى الأصفر !

- ١٤ -

● كان اليوم الاول لرحلة صاحبينا يوما بهيجا ، وقد سرهما ان اصبحا يملكان من الثروة ما يفوق ما فى اوربا وآسيا وإفريقيا معا ! .. على ان خروفين من خرافهما غاصا بحمليهما فى هوة، فى اليوم التالى . وما لبث آخران ان نفقا لفرط التعب بعد ايام ! .. ثم مات سبعة او ثمانية جوعا فى إحدى الصحارى .. وهكذا لم يبق لهما بعد مائة يوم سوى خروفين فقط ! .. فقال « كانديد » لكاكامبو : « هل ترى يا صديقى العزيز كيف ان مال هذه الدنيا فان ، وليس ابقى من الفضيلة .. ومن الفرحة برؤية الآنسة كيونجوند ! » .

وما لبثا ان اشرفا على مدينة « سورينام » التابعة لهولندا . وعندما اقتربا من المدينة ، رايا زنجيا مستلقيا على الارض ، وليس له سوى ذراع واحدة ــ هى اليمنى ــ وساق واحدة ، هى اليسرى ! وساله « كانديد » عن امره ، فقال انه يرتقب مولاه « ما ينهير فاندر دندور » التاجر المشهور ، فعجب الشاب لرجل يستخدم عبدا عاجزا بهذا الشكل ، ولكن الزنجى قال « هذه هى العادة هنا .. عندما يفقد عامل فى مصانع السكر اصبعا ، يقطعون يده .. فاذا حاول الفرار ، بتروا ساقه . وبهذا الثمن تحظون بالسكر فى اوربا ! .. ومع ذلك فان امى

حين باعتنى فى غينيا ، قالت لى : « بارك يابنى سادتنا البيض، فلسوف يسعدونك ، ولسوف تفخر بأن تكون عبدا للسادة البيض » ! .. ان الكلاب والحمير اقل تعسا منى .. ومع ذلك فان السادة الذين علمونى الدين ، يقولون لى فى كل يوم احد ، ان السود والبيض سواء ، أبناء آدم ! » .

فبكى كانديد وهو يقول : « اواه ، يابانجلوس .. اننى مضطر لأن انبذ تفاؤلك ، فمن المكابرة الزعم بأن كل ما فى الدنيا خير ، فى حين انه شر .. » .

وسالا عما إذا كانت ثمة سفينة راحلة إلى « بونس ايرس»، فاذا الذى سالاه يملك مركبا اسبانية ، اتفق على ان يقلهما عليها بأجر معتدل ، وواعدهما فى إحدى الحانات .. وهناك ، قص « كانديد » ــ بسذاجته ــ على الاسبانى مغامراتهما وعزمه على ان يحمل كيونجوند بعيدا عن « بونس ايريس » ، فقال الرجل : « اذن فلن اقلك إلى هناك ، وإلا شنقنا .. إذ ان كيونجوند الفاتنة هى أحب عشيقات الحاكم إليه ! » .

وبكى كانديد طويلا ، ثم انتحى بكاكامبو جانبا ، وقال له : « ان فى جيوبنا من الماس ما تعادل قيمته خمسة او ستة ملايين .. وانت ابرع منى فى هذه المسائل ، فاذهب لاحضار الآنسة « كيونحوند » ، وإن حاول الحاكم ان يثير الصعاب ، فاعطه مليونا ، او اثنين .. وسأجهز مركبا اخرى لنذهب فيها إلى (البندقية) .. » .

وتعانقا وهما يذرفان الدمع ، ثم رحل « كاكامبو » .. وبقى « كانديد » اياما يرتقب سفينة تقله وخروفيه الباقيين إلى

إيطاليا ، واستأجر خدما ، وابتـــاع ما يلزم لرحلة طويلة . .
واخيرا وقع على التاجر الهولنـــدى « ماينهير فاندر دندور »
الذى طلب ــ اجرا لنقله ــ عشرة آلاف من عملة بلاده ، فقبل
الشاب بلا تردد ، مما اوحى للرجل بانه واسع الثراء ، فاخـــذ
يرفع الأجر حتى بلغ ثلاثين الفا ! وقد أضمر فى نفسه أمـــرا :
فما ان نقل الخروفان إلى المركب، حتى نشر قلوعها وانطلق بها
دون ان ينتظر القارب الذى كان يقل « كانديد » من الشاطىء !

وعاد الشاب إلى الشاطىء حزينا محسورا ، وقـــد خسر
ما يعادل ثروة عشرين ملكا ! . . وسعى إلى قاضى المدينـــة
يعرض قضيته ، وكان يتكلم فى حدة وصوت مرتفع ، مما جعل
القاضى يحكم عليه بغرامة قدرها عشرة آلاف ، ثم انصت إلى
شكواه ، ووعد ببحثها عندما يعود صـــاحب الســـفينة . .
وتقاضاه عشرة آلاف أخرى . . رسوم القضية !

وكانت هذه الحيل ــ على تفاهتها بالنسبة لما لاقى كانديد من
مصائب ــ سببا فى نفاد صبره ، فقد كشفت له عن خبث الجنس
البشرى فى ابشع الصور . . وعندما سمع بعد وقت أن ثمة
سفينة فرنسية راحلة إلى (بوردو) ، استأجر غـــرفة على
سطحها ، واعلن فى المدينة انه على استعداد لان يصحب معه
انيسا يتكفل بنفقات سفره ، ويهديه عشرة آلاف فلس ، على
شريطة ان يكون اكثر اهل الاقليم سخطا على حاله ، واتعسهم
حظا ! . . وانتقى ممن تقدموا إليه عشرين شخصا ، دعاهم إلى
الفندق الذى كان ينزل فيه ، ووعد بان يقدم لهم العشـــاء ،
بشرط ان يقسم كل منهم بان يروى تاريخ حيـــاته ، فيختـــار

اسواهم حظا ، زميلا له فى سفره ، ويقدم لكل من الباقين منحة
سخية . .

وظل ينصت إليهم حتى الساعة الرابعة صباحا ، وهو يذكر
المراة العجوز حين قالت له ولحبيبته ان ليس من إنسان إلا وقد
اصابه الكثير من النحس . . ويتمنى لو كان معلمه بانجلوس
معه ، ليرى خطأ نظريته . . فما كانت الأمور خير ما يمكن أن
تكون إلا فى (الدورادو) وحدها !

واختار اخيرا طالب علم ظل عشر سنوات يعمل فى مكتبات
(امستردام) . . وكان امينا ، غاية فى الشرف ، ولكن زوجته
سرقته ، وضربه ابنه ، ونبذته ابنته وفرت إلى البرتغـــال ،
واضطهده رجال الدين فى (سورينام) !

— ١٥ —

● ورحل « مارتن » ــ وهو اسم الرجل ــ مع « كانديد »
إلى (بوردو) . . وكانا سواء فى سوء الحظ ، ولو أن «كانديد»
كان يعيش على امل ان يلتقى بالآنسة « كيونجوند » ، كما كان
لا يزال يملك بعض المال والجواهر .

وسأل « مارتن » وهما يتجادلان يوما فى فلسفة الحياة عن
رايه فى خير الطبيعة وشرها ، فانباه بانه من فئة الذين يؤمنون
بخلود الشيطان ، ولا يعترفون بالكتب السماوية ، فهتف به
« كانديد » : « لابد ان الشيطان قد استولى عليك ! » .

ــ قد لا يكون هذا مستبعدا ، فهو يهتم كثيرا بشئون دنيانا.
ولكنى لا املك ، كلما جلت ببصرى فى الارض ، إلا ان ارى ان
الله قد نبذها وتركها لمخلوق شرير . . فما اكاد اعرف مدينـــة

لا تبغى القضاء على جارتها .. ولا اسرة لا تطمع فى هلاك اسرة اخرى ! .. والفقراء فى كافة ارجاء الأرض يكنون البغضـــاء للأغنياء ، حتى وهم يزحفون ويتعلقون بأذيالهم .. والأغنياء يعاملون الفقراء كما لو كانوا غنما يقايضون بالمال على صوفهم ولحمهم !

وفيما هما يتجادلان ، سمعا قصف مدافع ، وإذا بسفينتين مشتبكتين فى قتال لم تلبث إحداهما خلاله ان اصيبت .. ورأيا مائة رجل يصرخون ويرفعون اذرعهم إلى السماء على ظهر السفينة الغارقة .. فقال « مارتن » : « هل ترى كيف يعامل الإنسان اخاه ! » .. وظهر أن السفينة المنتصرة اسبانية ، اما الغارقة فكانت عين السفينة التى سرق ربانها اموال « كانديد » ! .. وغرقت كل الثروة ، فيما عدا خروف واحد. فقال كانديد لصاحبه : « الا ترى ان الرذيلة تلقى احيانا عقابها ! » .

فأجاب مارتن : « هذا حق ، ولكن ما ذنب الركاب ؟ .. لقد عاقب الله الشرير ، واغرق الشيطان الباقين ! » .

واحتضن « كانديد » الخروف الناجى ، قائلا : « ما دمت قد وجدتك ثانية ، فمن المحتمل ان اجد حبيبتى كيونجوند من جديد ! » .

ولاح الساحل الفرنسى اخيرا .. فسأل كانديد صاحبه عما إذا كان قد زار (باريس) من قبل .. فأجاب مارتن : « اجل ، انها مرتع للفوضى .. زاخرة بأناس يبحث كل فرد منهم عن مسراته دون ان يجدها .. ما ان بلغتها حتى سرق النشالون

و « شارطو الجيوب » مالى ، ثم قبض على بزعم انى سارق ، وسجنت اسبوعا ! » .

وقال كانديد وهو يحاوره : « إلى اية نهاية تسير بنا هذه الدنيا ؟ اتظن ان بنى البشر كانوا دائما يتقاتلون هكذا ؟ هل كانوا دائما يقارفون الكذب ، والغش ، والخداع ، والجحود، والحسد ، والطمع ، والقسوة ؟ » .

— الا تعتقد ان الصقور جبلت دائما على التهام الحمام ؟ .. كذلك الجنس البشرى لا يمكن ان يغير فطرته !

-١٦-

● وصل « كانديد » و « مارتن » إلى باريس . وإذ كان « كانديد » متعبا من السفر ، وموفور المال ، فانه لم يلبث ان وجد فى زيارته طبيبين لم يستدعهما ، وحفنة من الأصدقاء الذين لم يسبق ان رآهم ، وامرأتين قامتا على خدمته .. فسرعان ما تحول التعب إلى مرض استفحل واشتد ! .. وإذا بقس الأبرشية يقبل ليبيعه صكا يدفع لحامله فى العالم الآخر ! .. واوشك « مارتن » ان يلقى بالقس من النافذة ، ثم اكتفى بأن القاه من الباب .. واثار الحادث فضيحة انتهت إلى القضاء !

وكان بين الذين احاطوا بكانديد ولازموه راهب لبق ذو كياسة ، صحبه ومارتن إلى المسرح .. وتأثر « كانديد » لروعة التمثيل، فذرف بعض الدموع، وإذا بأحد المحيطين يلومه قائلا: « ان التمثيل سيىء ، والمسرحية اسوأ .. فان المؤلف لا يفقه من اللغة العربية شيئا ومع ذلك فقد نسج فصولها فى بلاد العرب ! » .

وسال « كانديد » الراهب عن عدد المسرحيــات فى الادب الفرنسى ، فاجابه بانها تتراوح بين خمسة آلاف وستة آلاف . . فقال : « وكم الجيد منها ؟ » .

ـ حوالى خمس عشرة مسرحية ، او ست عشرة !

ولاحظ « كانديد » ان إحدى الممثلات تشبه « كيونجوند » فرغب فى ان يكرمها ، فقال الراهب : « اننا إذا رغبنا فى تكريم الممثلات فى مدن الريف ، صحبناهن إلى حانة . . اما فى باريس فيعاملن بغاية الاحترام خلال حياتهن ، ما دمن جميلات ، فاذا متن ، القينا بجثثهن مع اكوام القمامة ! » .

وتملكت الدهشة « كانديد » ، وعاد يتساءل : « اصحيح أن اهل باريس دائموا الضحك ؟ » .

ـ اجل ، ولكن الغضب كامن فى قلوبهم . . فهم يعبرون عن شكواهم بالقهقهة ، ويرتكبون ازرى الجرائم وهم يبتسمون !

وعرض الراهب على « كانديد » ان يعرفه بسيدة من ذوات الجاه ، يستطيع ان يرى فى بيتها صورة من الحياة الحقة . . فتركه كانديد يقوده إلى دار فى ضاحية « سانت اونوريه » ، حيث راى قوما يلعبون الورق ، وقد ران عليهم الصمت ، وشاع فى الجو القلق ، بينما كانت ربة البيت ترقب كل شىء بعينين كعينى اللبؤة . . وكانت تلقب بماركيزة « باروليناك » ، ولهــا ابنة فى الخامسة عشرة كانت بين اللاعبين ، وقد جهدت فى أن تشير لامها من طرف خفى برموز تكشف ما فى ايدى الآخــرين من ورق !

وخسر « كانديد » خمسين الف فرنك فى دورين ! . . واذهل القوم انه لم يبد جزعا على خسارته . . حتى إذا فرغوا من

العشاء ، شرعوا يتبادلون عبارات مقتضبة ، ثم فكاهات ، ثم اقبلوا على الشائعات والاقاويل ، وحديث السوء ، وبعض السياسة ، وكثير من الفضائح . . وتحولوا بعد ذلك إلى حديث الكتب والادب والمسرحيات . . وما لبثت الماركيزة ان قادت « كانديد » إلى غرفتها ، وسالته : « او ما زلت مدلها فى هوى الآنسة كيونجوند ؟ » . . وإذ رد بالإيجاب قالت : « ان الفرنسى لا يجيب مثلك ، بل يقول : « لقد كنت اكن لها حبا عظيمــا ، ولكننى منذ رايتك اشعر باننى لم اعد احبها بالقدر الذى كنت عليه ! .

واسقطت رباط جوربها ، فالتقطه لها ، ولكنها سالته ان يثبته حول ساقها . . وهكذا اغوته ، ثم استدرجته إلى النزول لها عن ماستين كان يزين بهما اصابعه !

وعاد « كانديد » مثقل القلب بالشعور بالخيانة نحو الآنسة « كيونجوند » . وكان القس يشاركه الأسى ، لانه لم يصـــب من المبلغ الذى خسره الشاب فى الميسر إلا قدرا ضئيلا ! . . ومن ثم عول على ان يستغل صلته به ما استطاع ، واحس ان فى الحديث عن « كيونجوند » ثغرة يتسلل خلالها إلى نفســه و . . جيبه ! . . فدبر حيلة ماكرة ، بحيث تلقى « كانديد » فى اليوم التالى رسالة من حبيبته تنبئه بانها فى باريس ، وانهـــا وحيدة ، مريضة . واسرع «كانديد» بذهبه وماسه مع «مارتن» إلى العنوان الذى ورد فى الرسالة . . فوجد سيدة فى فراش ، وحاول ان يزيح الستائر ليتأمل وجهها ، ولكن الخـــادم التى كانت تقوم على خدمتها حذرته قائلة انها لا تقوى على احتمــال النور ، ولا على الكلام . . فترك إلى جوارها كيسا من الذهب

وهو يبكى .. حتى إذا هم بالانصراف ، اقبل الراهب مع عدد من رجال البوليس المسلحين ، وقال لهم : « هاكم الغريبان اللذان تحوم حولهما الشبهات ! » .. فالقى الجنـــود القبض عليهما .. وفى الطريق ، حدس « مارتن » ان الجنود ليســوا سوى اعوان للراهب فى خدعة غــادرة ، وان التى خالهــا كيونجوند ليست سوى ممثلة زائفة ! ومن ثم اوحى إليــه ان يرشو ضابط الشرطة بثلاث ماســات .. وتقبــل الضــابط الماسات ، فاطلق سراح اسيريه ، واوفدهما إلى (دييب) ، حيث وجدا سفينة هولندية مقلعــة إلى (بورتســماوث) فى إنجلترا .. ومع ان « كانديد » كان يسعى إلى البندقية ، إلا انه آثر السفر على تلك السّفينة لينأى عن فرنسا !

- ١٧ -

● سال « كانديد » صاحبه وهما على سطح السفينة :

ـ هل فى انجلترا من الحمقى مثل ما فى فرنسا ؟

ـ اجل ، ولكن بطريقة مختلفة .. فهاتان الدولتان تتحاربان من اجل بضعة افدنة من الجليد بقرب كندا ، وقد انفقتا فى ذلك اكثر مما تساوى كندا باسرها !

وإذ بلغا (بورتسماوث) ، رايا جانبى المرفأ زاخرين بجموع تلاقت ابصارها على رجل ركع على سطح سفينة حربية ، وقد وقف امامه اربعة جنود ، لم يلبث كل ان اطلق ثلاث رصاصات على راس الرجل ! .. وعرف كانديد ان الرجل كان « اميرالا » وقد اعـــدم لانه لم يتســبب فى موت عـــدد كبير من اخوته فى البشرية .. فقد قاد معركة ضد اميرال فرنسى ولم يتغلب عليه!

ولم يشأ « كانديد » ان يطأ الساحل الانجليزى بل اتفق مع صاحب السفينة على ان يقله إلى البندقية .. وما ان وصــلا اليها ، حتى اخذ كانديد يبحث عن « كاكامبو » ، دون جدوى . وعجب لذلك ، فان رحلته إلى (بوردو) و (باريس) و (دييب) و (بورتسماوث) استغرقت شهورا ، كان من المقدر ان يصل خلالها « كاكامبو » والحسناء « كيونجوند » .. ووقر فى نفسه ان حبيبته لابد قد ماتت ، فاستسلم للحزن . وقال له «مارتن»: « لقد كنت من السذاجة بحيث خلت ان خــادما زنيمــا يحمل خمسة او ستة ملايين فى جيبه ، يذهب إلى آخر الدنيا ليبحث عن حبيبتك ويحضرها لك ؟ ! .. انه حتى لو وجدها ، سيؤثر بها نفســه .. الا فلتنس خادمك وحبيبتك ! » .

ولكن مواساة «مارتن» لم تزد كانديد الا اغراقا فى الأسى .. الى ان صادف يوما « باكيت » ـ وصيفة بارونة « ثندر ـ تن ـ ترونك » التى نقلت عدوى الداء الوبيل لمعلمه « بانجلوس » .. وعلم منها انها طردت من القلعة بعد ان بارحهــا بقليــل ، فصادفها طبيب عنى بعلاجها ، مقابل ان اتخذها عشيقة له بعد شفائها . واضــطرت بعــد ذلك إلى ان تقتات من الاتجــار بجسدها .. واختتمت المسكينة روايتها بانها اتعس النــاس طرا ، وإن كانت مهنتها تضطرها إلى اصطناع المرح والهناء ..

وعلم « كانديد » ان نبيــلا من شــيوخ البندقيــة يــدعى « بوكوكورانتى » يرحب بالأجانب ، فصحب « مارتن » لزيارته فى قصره الفخم . واستقبلهما رب الدار فى ادب جم ، وقدمت إليهما فتاتان جميلتان شراب « الكاكاو » ، وما لبث الشيخ ان اصطحب ضيفيه بعــد العشــاء إلى حجرة مكتبتــه ، فراحا

يستعرضان كتبه، ويخوضان معه فى حديث عن الأدب والكتب، فاذا به يعرب عن سأمه من كل كتاب ، وقال اثناء الحديث : « إننا لا نكتب اليوم فى إيطاليا إلا كل ما لا يجول بخواطرنا ، فان الناس لا يجرؤون فى هذه الأيام على اعتناق اية فكرة إلا بتصريح من احد رهبان مذهب الدومينيكان ! » .. وعجب « كانديد » لهذا الرجل الذى لم يكن راضيا عن شىء ما .. وإذ انصرفا من عنده ، قال مارتن لكانديد : « هل رايت ؟ لقد اوتى هذا الرجل كل ما يجعله اسعد الخلق ، ولكنه يكره كل ما فى حوزته ! » .. فقال كانديد يحاوره : « هذا لا ينفى ان ثمة متعة فى انتقاد كل شىء ، وفى كشف الأخطاء فيما يراه الغير جميلا ! » .

— اى ان ثمة متعة فى ان لا يستمتع المرء باى شىء ؟ !

وانتهيا من جدلهما إلى ان خير شىء للإنسان ان ياخذ بالأمل فى الحياة !

- ١٨ -

● واخذت الأسابيع تنصرم ، ولا اثر لكاكامبو ! واضنى « كانديد » الأسى والحزن .. إلى ان كان يتاهب ذات مساء للذهاب مع « مارتن » لتناول العشاء فى الفندق ، حين فوجىء بكاكامبو ! .. وما كان يفوق فرحته برؤيته إذ ذاك سوى فرحته لو راى « كيونجوند » .. فما ان اشبع شوقه إليه ، حتى ساله عن فاتنته ، وإذا به يعرف انها فى القسطنطينية . وقال كاكامبو :

« لا استطيع الآن ان ازيدك حديثا ، فانا عبد ، ومولاى فى ارتقابى لأخدمه على المائدة . .ولكن ، لا تفصح امامه عن شىء، بل تناول عشاءك وتاهب لنرحل معا » .

وكان حول مائدة الفندق ستة من الأغراب ، قام « كاكامبو » على خدمة احدهم ، حتى إذا انتهى العشاء ، اقترب منه قائلا: « مولاى ، يستطيع جلالتكم ان يرحل متى شاء ، فالسفينة معدة » .. واقترب من كل من الآخرين خادمه يطمئنه إلى قرب الرحيل ، ويخاطبه بـ « مولاى » و « جلالتكم » .. حتى إذا انصرف الخدم ، قال « كانديد » وهو فى غمرة الدهشة : « ايها السادة ، هذا لعمرى امر طريف .. كيف تصادف انكم جميعا ملوك ؟ » .

وتبين انهم جميعا ملوك سابقون ، وقد جاءوا ليشهدوا حفلات « الكرنفال » فى البندقية .. وكان مولى « كاكامبو » هو « السلطان احمد » ، عاهل تركيا السابق ، الذى يعيش معتقلا فى بلاده ، والذى وفد باذن من ابن اخيه « السلطان محمود » الذى خلفه .. وقد استطاع « كاكامبو » الوفى الأمين ، ان يغرى ربان سفينة السلطان على ان يسمح لكانديد ومارتن بأن يرحلا على سطح السفينة .. وقال كانديد لمارتن وهما يصعدان اليها : « ارايت كيف تناولنا العشاء مع ستة ملوك مخلوعين ؟ ولعل هناك امراء آخرين اكثر تعاسة منهم . فى حين اننى فى طريقى إلى احضان « كيونجوند » .. اننى اؤكد ان «بانجلوس» كان على حق إذ قال ان كل شىء يتطور إلى الخير ! » .

وإذ التقى « كانديد » بكاكامبو على سطح السفينة ، راح يمطره بالأسئلة عن « كيونجوند » .. فقال له انها تغسل الأطباق فى دار امير فقير ، فهى جارية فى اسرة مالكة عريقة تعيش فى تركيا لاجئة ، واستطرد قائلا : « ولكن ادعى الأمور

جميعا للحزن ، وهو انها فقدت جمالها واصبحت بشعة الشكل ! » .

ومضى فذكر انه دفع لحاكم « بونس ايرس » مليونين مما كان يحمل ، ليسترد « كيونجوند » ، ثم هاجم احد القرصان السفينة التى كانا عليها ، فسلبه ما بقى معه من الملايين ، وباعها هى ووصيفتها العجوز فى تركيا !

وان هى إلا ايام ، حتى بلغت السفينة مياه البسفور ، فبادر « كانديد » بدفع فدية ضخمة للسلطان السابق كى يسترد « كاكامبو » ، ثم اسرع معه ــ يرافقهما « مارتن » ــ ليبحثا عن « كيونجوند » .. وفيما هم يغادرون السفينة ، لمح «كانديد» عبدين ممن يجدفون لتسيير السفينة ، يتأملانه فى تفرس .. حتى فاجأهما ربان السفينة ، فهم بأن يجلدهما بالسياط .. لولا انتدخل كانديد، وإذ ذاك صاحالعبدان : « يا للسماء !.. اهذا كانديد ! ؟ » .. وشد ما ذهل كانديد إذ الفى ان احدهما كان « الأب الجزويتى القائد » ــ شقيق « كيونجوند » الذى ظن انه قتله ــ وان الآخر كان معلمه « بانجلوس » الذى رآه بشنق ! .. فلم يتردد فى أن يدفع للربان الفدية التى طلبها ليستردا حريتهما ..

وانطلقوا جميعا ، ينشدون تحرير « كيونجوند » .

ــ ١٩ ــ

● اعتذر ابن البارون عما كان منه مع « كانديد » ، ثم روى له كيف انه اسعف بالعلاج بعد أن طعنه هذا ، وشفى . بيد انه لم يلبث ان وقع فى اسر الاسبان ، ثم استرد حريته ورحل

إلى روما ، فعينه رئيس كنيسته قسا خاصا للسفير الفرنسى فى القسطنطينية .. وهناك ارتكب ما اوغر صدر الحاكم الإسلامى عليه ، فكان عقابه ان صار عبدا !

اما « بانجلوس » ، فلم يكد « يشنق » حتى ابتاع طبيب جثته ليجرى عليها بعض تجارب فى التشريح ، ولكنه سرعان ما تبين ان حبل المشنقة كان مبتلا ، فلم يطبق على عنقه فى شدة ، ومن ثم بقيت فيه بعض انفاس واهنة .. وهكذا عنى به الجراح ، حتى شفى .. وما لبث ان عمل فى خدمة تاجر من البندقية ، وذهب معه إلى القسطنطينية ، حيث قدر له يوما ان يدخل مسجدا ، ففاجاه الامام ، وساقه إلى القاضى ، الذى ارسله ليعمل رقيقا فى السفينة التى كان البارون مستعبدا فيها ..

وبلغ الرفاق الدار التى كانت فيها « كيونجوند » والوصيفة العجوز .. وذابت قلوبهم اسى إذ وجدوا « كيونجوند » وقد حرقت الشمس بشرتها ، وضعف بصرها ، وتجعد وجهها !.. وابتاع كانديد الفتاة والعجوز من مولاهما ، ثم اشترى مزرعة صغيرة ، استقروا فيها ..

وذكرت « كيونجوند » فتاها بوعده بان يتزوجها ، دون ان تفطن إلى ما عدا على جمالها من تشوه .. ولم يتردد «كانديد» فى ان يقبل البر بوعده ، ولكن اخاها البارون ابى ان يسمح لأخته بان تتزوج من شخص ادنى منها محتدا واصلا ! .. فصاح كانديد : « ياللأحمق .. الم افتدك ، واحرر اختك ، واقبل الزواج منها رغم ما اصابها ؟ » .. فقال البارون : «لك انتقتلنى ثانية، ولكنكلن تتزوج مناختى ما دمت حيا !».

والواقع ان « كانديد » لم يكن شديد الشغف بالزواج منها، ولكن معارضة البارون ، وإلحاح كيونجوند ، جعلاه يلجأ إلى مشورة بانجلوس ومارتن وكاكامبو .. فافتى أولهم بأن ليس للبارون ولاية على اخته .. ونصح كاكامبو باعادة البارون إلى ربان السفينة . وفعلا نفذوا هذا الرأى !

— ٢٠ —

● وكان من الطبيعى بعد ذلك ان نتصور ان « كانديد » — بعد كل هذه النكبات — تزوج من « كيونجوند » ، واستقر مع زملائه فى هناء . ولكن ثروته كانت قد نفدت ، ولم تبق له سوى المزرعة الصغيرة ، واخذت زوجته تزداد كل يوم قبحا ، واختل عقل المرأة العجوز وساءت طباعها ! .. وكان « كاكامبو » يفلح المزرعة ، ويحمل محصولها ليبيعه فى القسطنطينية ، حتى اضناه التعب واخذ يلعن حظه ! .. ويئس « بانجلوس » من ان يحظى بمركز فى اية جامعة المانية .. اما « مارتن » فكان قد وطن نفسه على ان الحياة ليست سوى سوء حظ وشقاء ، مما اعانه على الصبر !

وكانوا لا يفتأون يتجادلون فى فلسفة الحياة ، وسألتهم العجوز يوما : « ايهما اسوأ ، ان يلقى المرء مثل ما صادفوا من نكبات ومحن .. او ان يبقى فى المزرعة خاملا ، لا يفعل شيئا ؟ » .. فاجاب « مارتن » بأن الإنسان ولد ليعيش فى احد حالين : فى متاعب وقلاقل ، او فى خمود البطالة والكسل ! .. ولم يستقر « كانديد » على راى ، بينما اصر « بانجلوس » على مذهبه فى التفاؤل ، وفى ان كل شىء لا يمكن ان يكون خيرا مما

هو كائن ! .. وقال « مارتن » لكانديد : « لقد توقعت ان تبدد ثروتك ، فلا تزيد الجميع إلا تعاسة على تعاسة ! » .

وفى تلك الأثناء ، وفدت على المزرعة ، الوصيفة « باكيت »، وراهب كان يلازمها .. وما ان التقت ببانجلوس حتى شغلته عن فلسفته ! .. وكان يقيم على مقربة من المزرعة « درويش» عرف بأنه خير فلاسفة تركيا ، فلجأوا إليه يستشيرونه .. قال له بانجلوس : « جئنا نسألك : لماذا خلق مثل هذا الحيوان العجيب الذى يسمونه الإنسان ؟ » .

فاجاب الدرويش : « ولماذا تشغل عقلك بامر ليس من شأنك ؟ » .

وسأله « كانديد » : « الا ترى ان فى الأرض كثيرا من الشر والسوء ؟ » .

فقال الدرويش : وما قيمة الخير او الشر ؟ .. عندما يرسل السلطان سفينة إلى مصر ، اتراه يشقى يتعرف ما إذا كانت الجرذان فيها مرتاحة ؟ » .

قال بانجلوس : « اذن ، ماذا ينبغى ان نفعل ؟ » .

— نلزم الصمت ..

— كنت اطمع فى ان نتناقش فى الأسباب والمسببات والنتائج، وفيما فى العوالم من خير، وفى اصل الشر وطبيعة النفس ..

وطردهم الدرويش .. وفى تلك الأثناء ، شاعت الانباء بأن وزراء تركيا ومفتيها قد شنقوا ، فاثار ذلك ضجة لبضع ساعات .. وفيما كان « بانجلوس » و « كانديد » و «مارتن» عائدين إلى المزرعة الصغيرة ، صادفوا رجلا سمح الوجه يقف

امام داره . وبدافع من الفضول الغريزى عند بانجلوس ، سال الرجل عن اسم المفتى الذى شنق ، فاجابه هذا : « لست ادرى .. فما عرفت يوما اسم مفتى او وزير ، وانى لاجهل كل شىء عن النبأ الذى ذكرته . على اننى اظن ان اولئك الذين يشغلون انفسهم بالمسائل العامة ، يلقون احيانا مثـل هـذا المصير التعس ، وانهم ليسـتحقونه ، ولكننى لا احفـل قط بالسؤال عما يجرى فى القسطنطينية .. » .

ودعاهم الرجل إلى داره ، حيث عرفهم بابنتيه وابنيـه ، الذين قدموا إليهم مختلف انواع الموالح ، والفواكه ، والعطور ، فقال كانديد للرجل : « لابد انك تملك ضيعة شاسعة .. ؟ » .

ــ ان كل ما املك لا يزيد على عشرين فدانا ، ازرعها بنفسى وبمساعدة اولادى ، فيكفى محصولها ليصد عنا ثلاثة انواع من الشر : « الكسل ، والرذيلة ، والعوز ! » .

وفيما كانوا عائدين إلى مزرعتهم ، قال كانديد : « يبدو ان هذا الشيخ الطيب قد اختار لنفسه نصيبا افضـل مما لاقاه الملوك الستة الذين تشرفت بتناول العشاء معهم ! » .

فقال بانجلوس : « ان المجد البشرى شديد الخطر ، فكم من ملوك واباطرة لقوا ابشع المصائر ! » .

قال كانديد : « هو ذلك .. وما اراك بحاجة إلى ان تقول لى ان علينا ان نعنى بمزرعتنا » .

فقال بانجلوس : « هذا حق .. إذ ان الإنسان حين اسكن جنة عدن ، إنما وضع فيها ليعنى بها ويعمرها .. وهذا دليل على ان الإنسان لم يولد ليكون خاملا ! » .

* * *

المؤلف
(١٨٠٢ — ١٨٨٥)

● لعلك لست فى حاجة إلى ان ازيدك تعريفا بمؤلف هذه القصة العالمية الخالدة ، فلقد عرفت الكثير عن « فيكتور هوجو » من كتاب زوج حفيدته « ليون دوديه» الذى قدمته لك مسلسلا فى اعداد سابقة من «كتابى» .. وإنما حسبى ان اضيف هنا الخطوط الرئيسية فى حياة هوجو : فقد ولد يوم ٢٦ فبراير سنة ١٨٠٢ فى « بيزانسون » ، من أب كان « جنرالا » فى الجيش الفرنسى .. وكتب عمله الأدبى الأول — وكان مأساة تمثيلية — وهو بعد فى الرابعة عشرة .. وفى سن العشرين اجرى عليه الملك لويس الثامن عشر راتبا شهريا تشجيعا له على مواصلة تفرغه للأدب .. وفى سن التاسعة والثلاثين انتخب عضوا فى الاكاديمية الفرنسية ، وبعد اربعة اعوام بات معدودا اشهر كاتب فرنسي على الاطلاق ! .. وزادته آراؤه الجمهورية شهرة بعد ثورة ١٨٤٨ ، لكنها ادت إلى نفيه بامر من نابليون الثالث عام ١٨٥١ .. فعاش فى منفاه بجزيرة « جرسى » حتى ١٨٧١ ، حين سقط الإمبراطور على اثر هزيمة فرنسا فى الحرب السبعينية ، فعاد من المنفى إلى وطنه ليتربع فوق عرش الأدب الفرنسى ، وفى قلوب الفرنسيين قاطبة ، ملكا غير متوج ! .. حتى مات فى باريس يوم ٢٢ مايو سنة ١٨٨٥

● وقد اصدر هوجو قصته هذه « احدب نوتردام » وهو فى التاسعة والعشرين، فاحتل بها على الفور مكانة « والتر سكوت » ملك القصص « التاريخية » فى إنجلترا .. بل انها نالت من النجاح فى فرنسا اكثر من أية قصة فرنسية اخرى بغير استثناء !

١ — كازيمودو

● منذ ساعة مبكرة من صباح يوم ٦ يناير سنة ١٤٨٢ ، استيقظت باريس بأسرها وهى اشبه بخلية النحل ، وقد ازدحمت شوارعها بالجماهير الدائبة الهرج والمرج ! .. كان اليوم عيدا مزدوجا ، فقد صادف أن اجتمع فيه عيدان : « عيد الغطاس » — الذى كان يعرف باسم عيد الملوك — وعيد « وليمة الأغبياء » .. وكان اهل باريس يتلهفون شوقا إلى الاستمتاع ببرنامج اللهو فى ذينك العيدين ، وكان مقررا ان يشتمل على تمثيل مسرحية شائقة من مسرحيات الغموض والخفاء ، فى «قصر العدالة» ، يعقبها انتخاب « بابا الأغبياء » — او ملك المغفلين !

وكان « المسرح » الذى انشىء لتمثل عليه الرواية عبارة عن منصة كبرى من الخشب نصبت فوق عدد من المناضد الرخامية صفت فى اقصى القاعة الكبرى بذلك القصر . اما « الغرفة » التى اعدت ليبدل الممثلون فيها ثيابهم ، فلم تكن غير الفراغ الذى يتخلل المناضد ، تحت المنصة ! وقد غطيت واجهته ببضع سجاجيد ، وانتقل الممثلون منه إلى المسرح وبالعكس بواسطة سلم خشبية عادية اسندت إلى الجدار فى مواجهة النظارة !

● ومنذ ازدحمت القاعة بالجماهير ، قبيل موعد التمثيل بساعات ، اخذ هؤلاء يتسلون بتبادل النكات ، والغناء ، والصياح .. وحين دقت الساعة الثانية عشر اخلد الجميع للصمت ، انتظارا لبدء التمثيل .. ثم تبين أن سفراء الهيئات

الدينية الذين قدموا إلى باريس خصيصا ليحتفلوا ببرنامج
العيد الموضوع تحت رعايتهم ، لم يحضروا بعد ! .. فلما
انقضت الدقائق دون ان يبدو ما ينبىء بقرب قدومهم بدات
الجماهير تضج وتعبر عن مللها واستنكارها بشتى الأساليب،
وبدت منها نذر التأهب لاستخدام العنف واللجوء إلى التخريب
والتدمير .. فأزيحت إحدى سجاجيد غرفة الممثلين وبرز منها
ممثل يرتدى زى الإله « جوبيتر » ، فاتكا على منضدة رخامية
واعلن أن التمثيل سوف يبدأ بمجرد وصول غبطة «الكاردينال»
.. لكنه لم يكد ينطق بعبارته حتى انطلقت صيحات الجماهير
تهدد بالويل والثبور إن لم يبدأ التمثيل على الفور ! ..

وعندئذ برز من ظل احد الاعمدة شاب وسيم الطلعة
تقدم من الممثل المذكور قائلا : « بل ابدأوا فورا يا جوبيتر ،
وسأتكفل انا بالاعتذار لكل من المحافظ والكردينال » .. كان
المتكلم « بيير جرنجوار » مؤلف الرواية ، فبددت عبارته تردد
الممثل ، وصاح بالنظارة من فوره : « ايها المواطنون ، سنبدأ
التمثيل توا ! » .. واستقبلت بشراه بالتهليل وصيحات
الترحيب الحارة ، التى لم تكد تتلاشى حتى صعد اربعة من
الممثلين إلى المنصة .. وبدأ التمثيل .

● لكن الرواية كانت سخيفة مملة ، فسرعان ما انشغل
النظارة عنها بتبادل النكات والأحاديث ، حتى بعد قدوم
الكردينال والسفراء ! .. ولم يمض ربع ساعة حتى وقف أحد
اولئك السفراء وقال موجها كلامه إلى الجماهير : « ارى ان
يتوقف التمثيل عند هذا الحد ، ونمضى جميعا لانتخاب ملك

المغفلين .. واقترح ان تتبعوا فى انتخابه الطريقة التى ننتخبه
بها فى بلادى ، حيث يباح لكل من المجتمعين ان يطل براسه
من فتحة اشبه بالنافذة ، فيقطب وجهه ويلوى سحنته ،
والشخص الذى ينجح فى جعل وجهه يبدو اقبح الوجوه جميعا
فى الخلقة ، يفوز باللقب ! » .

ورحبت الجماهير بالفكرة فى حماس .. وتقرر أن
يحتشد المتبارون فى غرفة الصلاة المجاورة للقاعة الكبرى ..
ومن نافذة الغرفة المطلة على الصالة اخذ « المغفلون » يطلون
برؤوسهم ويقطبون وجوههم للجماهير الضاحكة ، واحدا بعد
الآخر .. وكانت الوجوه القبيحة من الكثرة بحيث تحير
الناس فى اختيار اقبحها ! .. ولكن فجأة علت ضجة تهليل
وتصفيق مدوية معلنة إجماع الحاضرين على انتخاب الوجه
الاخير !

كان وجها لم ير احد من النظارة يوما وجها اقبح منه :
الفم اشبه بحدوة الحصان ، والانف كالهرم المثلث الأضلاع ..
وإحدى العينين مدفونة تحت كيس هائل من الدهن ، والعين
الاخرى يظللها شعره الاصهب الذى فى لون الجزر ! ..
والأسنان غير منتظمة ، وواحدة منها ناتئة كناب الفيل خارج
شفتيه المترهلتين .. !

● وحين ظهر جسم صاحب ذلك الوجه الكريه بلغ هرج
النظارة و « إعجابهم » اقصاه، فانهالوا عليه « ضربا » على
الكتفين وكدما فى الامعاء ، فقد كان ظهره ذا حدبة مروعة ،
وساقاه ويداه وقدماه « آية » فى الضخامة والتشويه ! ..
انه لم يكن غير « كازيمودو » قارع اجراس الكاتدرائية ..

كازيمودو احدب نوتردام .. كازيمودو ذى العين الواحدة والجسم المشوه !

وسرعان ما جلب المختصون للاحدب رداء « ملك المغفلين » التقليدى ، وتاجه المضحك المصنوع من الورق المقوى ، فوضعوهما على راسه وكتفيه ، ثم اجلسوه على محفة ملونة لم يلبث أن رفعها فوق اكتافهم اثنا عشر ضابطا من « أصدقاء » المغفلين .. ثم خرج الموكب من قصر العدالة ليقوم بجولته التقليدية فى شوارع باريس .. !

٢ — ازميرالدا

● لم تبق غير حفنة ضئيلة من المتفرجين فى القاعة الكبرى ، تشاهد آخر محاولة يبذلها « جرنجوار » للمضى فى تمثيل مسرحيته الفاشلة .. وفجاة صاح أحدهم : « أزميرالدا !.. أزميرالدا فى الميدان ! » فهرع الجميع ليروا من تكون ازميرالدا هذه !

وتبددت آخر آمال جرنجوار ، فراح يسب ويلعن غباء الباريسيين، واندفع بدوره إلى الشارع يائسا .. وبعد ان مضى فى الطرقات على غير هدى فترة من الوقت ، انتهى إلى ميدان « دى جريف » ، حيث لمح نارا مشتعلة تتوهج فى وسطه ، فاتجه نحو مصدرها ..

كانت حلقة من الناس ملتفة حول النار ، ترقب بعيون مشغوفة فتاة حسناء ترقص ! .. ولم يكد بصر جرنجوار يقع عليها بدوره حتى نسى همومه . كانت سمراء البشرة ، رشيقة القوام ، رائعة التكوين ، تشع عيناها السوداوان نارا وهى

تدور على عقبيها وذراعاها الرائعتان مرفوعتان فوق راسها .. وكان واضحا من هيئتها ورقصها انها .. غجرية !

● وبين مئات الوجوه التى كانت مصوبة نحوها كان ثمة وجه تفيض من عينى صاحبه نظرة شريرة ! .. نظرة تعبر عن مزيج من الشهوة المشبوبة ، والكراهية المشمئزة ! .. لم يكن صاحب ذلك الوجه يزيد فى السن عن الخامسة والثلاثين ، ورغم ذلك فقد كان اصلع الراس ، تغضن جبينه التجاعيد .. ولم يكن رداؤه يبين بوضوح وسط الزحام .

وبعد حين توقفت الغجرية عن الرقص ، وانحنت تنادى عنزة صغيرة بيضاء كانت راقدة بالقرب منها .. فقفزت العنزة واقفة واطاعت صاحبتها فبدات تعرض حركات والعابا ماكرة اثارت دهشة المتفرجين وإعجابهم .. وفجاة انبعث صوت الرجل الاصلع يقول فى خشونة وفظاظة : « انها لواحدة من السحرة ! » .. ورغم ان صيحته ضاعت وسط تهليل الجماهير وتصفيقها فان الغجرية الحسناء قد ارتجفت لسماع عبارته .. لكنها لم تلبث ان استدارت لتواصل رقصها ..

● وبعد برهة سمع صوت امراة تهتف من احد اركان الميدان المظلمة: «هلا مضيت من هنا ايتها الحشرة الحقيرة ؟» .. وكان فى لهجتها غل وضغينة ، ثم اردفتها المراة بصيحات اخرى حافلة بالسباب الأشد نكرا .. وفى تلك اللحظات ظهر فى طرف الميدان موكب ملك المغفلين ، فنسيت الجماهير كل ما عداه .. وكان كازيمودو متربعا فوق هامات رعاياه من الدهماء الذين يدينون له بالولاء ، بحكم لقبه الجديد ، وقد ارتسمت فى عينه نظرة زهو ومباهاة !

وحين مر موكب كازيمودو امام البقعة التى وقف فيها الرجل الأصلع ، شق هذا طريقه وسط الزحام حتى بلغ الأحدب فاختطف من يده « صولجانه » الخشبى المذهب ، رمز «ملكه» الجديد وسلطانهالذى قلدته إياه الجماهير!.. وتعرف جرنجوار فى الرجل الاصلع على الأسقف « كلود فروللو ».. اما المجتمعون فقد حبسوا انفاسهم فى انتظار ما سيحدث من رد فعل لتلك الحركة المتحدية ! .. لقد توقعوا ان يروا الأحدب ذا القوة الجسمانية الخارقة يمزق الأسقف اربا اربا .. لكنهم — لدهشتهم — راوه بدلا من ان يمزقه يخر جاثيا امامه على ركبتيه ، ويبقى على هذا الوضع .. والأسقف ينتزع تاجه بدوره من على راسه ، ثم يخلع عنه اخيرا رداء ملك المغفلين !

وقد كان الضباط الاثنا عشر الذين حملوا الاحدب خليقين ان يهاجموا الأسقف المعتدى محنقين ، لو لم يبادر كازيمودو بمجرد وقوفه على قدميه إلى بسط حمايته على غريمه الذى « خلعه » عن عرشه .. ثم افسح له مكانا ليمر بسلام وسط الزحام .. وحين القى إليه هذا نظرة آمرة ، تبعه الاحدب وهو يصر على اسنانه غيظا وكمدا ، كوحش حبيس !

٣ — محاولة اختطاف !

● راقب جرنجوار الرجلين وهما يختفيان فى شارع جانبى ضيق ، ثم عاد يتطلع ببصره إلى حيث ترك الراقصة الغجرية ، فلما لمحها من بعيد انطلق يتبعها خلال الطرقات .. وكان الليل قد تقدم ، ولم يبق غير نفر قليل من المارة فى

الشوارع والأزقة المتواضعة التىسلكتها الغجرية «ازميرالدا» وعنزتها .. وحين بلغت الفتاة منعطفا من الطريق استدارت إليه ، فغابت — مؤقتا — عن ناظرى الشاب الذى يتبعها : «جرنجوار» .. ولكن لم تمض لحظات حتى سمعها هذا تطلق صرخة حادة ، فراح يعدو فى اتجاه مصدر الاستغاثة ، وإذ ذاك لمحها من بعيد تجاهد للتخلص من قبضة رجلين .. فلما اقترب منها عاجله احد الرجلين — وقد عرف فيه كازيمودو ! — بضربة مروعة القته على الأرض فاقد الوعى .. وفيما كان الأحدب يتهيأ ليحمل الحسناء ويمضى بها ، ظهر من شارع جانبى فارس على ظهر جواد ، يتبعه نحو عشرة من الحراس المسلحين بالرماح .. فخلصوا ازميرالدا من قبضة خاطفها والقوا القبض عليه .. بينما انسل مرافقه فى سكون إلى حيث اختفى عن الانظار !

والتفتت الفتاة إلى منقذها تسال عن اسمه ، فاجابها : « انا الكابتن فيباس دى شاتوبير ، فى خدمتك يا آنسة » .. فاجابته شاكرة .. وفيما كان الضابط يهذب شاربه مزهوا ، انسلت الفتاة فى سكون واختفت فى الظلام !

● فلما افاق جرنجوار من إغماءته كان الطريق خاليا موحشا ، فمضى على غير هدى يبحث عن مكان يقضى فيه ليلته .. حتى وجد نفسه امام باب وكر من اوكار اللصوص والبغايا والقتلة ، يطلق عليه « كور دى ميراكل » ، وفوجىء بنفر من الأشرار يلقون القبض عليه ويقودونه إلى زعيم عصابتهم ، الذى قرر ان يقتل الأسير شنقا ما لم ينجح فى حمل واحدة من نساء الوكر علىان ترضى به زوجا لها !.. لكن

اكثرية هؤلاء النسوة اشحن عنه معرضات ، دون ان يعبأن
حتى بإعادة النظر إليه ! .. فتاهب الأشرار لوضع راسه
فى حبل المشنقة ، وفى هذه اللحظة صاح احدهم : «ازميرالدا !
ازميرالدا ! » فأدار جرنجوار عينيه ليرى فى مواجهته الراقصة
الغجرية ! .. والتفتت هذه إلى الزعيم تساله : « هل تعتزم
شنق هذا الفتى ؟ » .. فأجابها : « نعم يا اختاه ، ما لم تكونى
راغبة فى الزواج منه ! » .. فلوت ازميرالدا شفتها السفلى
وقالت : « حسنا ، سآخذه .. ! » .

لكن ليلة زفافهما كانت ابعد ما تكون عن ليالى الزفاف ..
فحين حاول جرنجوار مغازلة « عروسه » كان ردها عليه ان
استلت سكينا وهددته بالقتل إذا هو اقترب منها ! .. ثم نام
كلاهما فى مخدع منفصل ، ولم يظفر جرنجوار المسكين حتى
بسرير ينام عليه .

٤ ــ الماضى البعيد ..

● فى الوقت الذى جرت فيه الوقائع السالفة ، كان الأحدب
« كازيمودو » فى العشرين من عمره .. وكان قد وجد فى
طفولته لقيطا فعرض على هذا الاعتبار فى كنيسة نوتردام ،
التى غدا الآن قارع اجراسها ! .. ويومئذ التفت النسوة
العجائز حول مهده الذى وجد فيه ــ وكان عبارة عن «جوال»
مهلهل ــ وبلغ من ذعرهن من قبح خلقته انهن رجحن ان يكون
من نسل « إبليس » ، ورأين ان خير مصير له هو ان يلقى على
حزمة من الحطب ثم تشعل فيه النار ! .. وقد كاد هذا المصير
يدركه فعلا يومئذ ، لولا تدخل اسقف شاب .. يدعى « كلود

فروللو » ! .. فقد ازاح الأسقف النسوة العجائز جانبا ،
وتقدم من اللقيط فبسط يده فوقه ونطق بهذه الكلمات :
« انى اتبنى هذا الطفل ! » .. ثم لف اللقيط فى عباءته ومضى
به .. فدهشت النسوة من تصرفه ، وقالت إحداهن : « الم
اقل لكن ان كلود فروللو يشتغل بالسحر ؟ » .

كان الأسقف رجلا غريب الأطوار ، تميزه عن زملائه
الأساقفة الآخرين طلعته الصارمة، ونظرته النافذة، وتكريسه
حياته لرسالته الدينية .. وقبل ان يتبنى كازيمودو المشوه
كان همه الأوحد العناية بأخيه الأصغر « جيهان » الذى تولاه
برعايته منذ كان بدوره طفلا ..

وحين كبر كازيمودو علمه الأسقف الكلام ، والقراءة
والكتابة ، ثم عينه قارعا لاجراس كاتدرائية نوتردام ! .. وإذ
فرض عليه تشويه خلقته ان يعيش بمعزل عن الناس ، فقد
صارت الكنيسة عالمه الأوحد ، وكان عرفانه لصنيع الأسقف
الذى عينه فى هذا «المنصب» الخطير لا يضارع .. لكن الدوى
الرهيب لهذه الأجراس لم يلبث ان اصاب اذنى التعس بالصمم،
كأنما ليزيده عزلة عن الكون وما فيه ! ورغم ذلك فقد الف ان
يفهم رغبات سيده الأسقف بمجرد الاشارة ، ومن ثم صار
هذا بالنسبة إليه المخلوق الوحيد الذى له به اى اتصال !

● اما الأسقف فكانت عواطفه كلها مركزة فى اخيه
« جيهان » ، وان يكن امله فيه قد خاب .. فان الفتى بدلا من
ان يسلك مسلك اخيه فيكرس حياته للدين والدراسة ، صار
ينفق ايامه ولياليه فى الحانات واندية القمار فيبعثر فيها

امواله بلا حساب ، حتى ساءت سمعته وعرف بالخلاعة والمجون .. ولم تجد معه كل نصائح اخيه الأسقف وتهديده ووعيده ، فلما يئس هذا من إصلاحه انطوى على نفسه فصار ينزوى طيلة اوقاته فى مكتبته يستنفد ما فيها من معارف لعلها تنسيه شقوته .. ومن هنا نبتت شائعة اشتغاله بالسحر ، ففى تلك الايام كان الانغماس فى العلم وممارسة السحر مترادفين فى عرف الجهلة والعوام .

٥ ـ الأم المكلومة

● على اثر اعتقال كازيمودو على يد الضابط « فيباس » وجنوده اقتيد الأحدب إلى المحقق متهما باثارة الشغب اثناء الليل ، ومهاجمة امراة عزلاء ، ومقاومة جنود حرس الملك !.. فحكم عليه بالجلد بالسياط ووضعه فى آلة التعذيب الكائنة فى ميدان «دى جريف» ، حيث كانت ترقص ازميرالدا فى الليلة السابقة .. وحيث قاطعتها امراة من المتفرجات صائحة من احد اركان الميدان المعتمة فى حقد وضغينة باديتين : « هلا مضيت من هنا ايتها الحشرة الحقيرة ؟ » .

وقد كانت لتلك المراة قصة :

كانت تدعى بالأخت « جودول» ، وكانت قد قضت ستة عشر عاما سجينة زنزانة قريبة من آلة التعذيب المقامة فى ميدان « دى جريف » . لكنها لم تدخل تلك الزنزانة بحكم القانون ، وإنما دخلتها طائعة مختارة ! .. كانت فى شبابها رائعة الحسن ، فانفقت ايامها فى اللهو والتهتك .. فلما بلغت العشرين هجرها احد عشاقها ذات ليلة ، تاركا إياها

وحيدة مع طفلتها الرضيعة ، فاسبغت عليها منذ تلك اللحظة كل عواطفها .. وذات يوم ـ وكانت الطفلة تبلغ من العمر نحو عام ـ تركتها امها نائمة فى مهدها وخرجت لبعض شأنها .. فلما عادت وجدت المهد خاليا من الطفلة ، ولم تعثر للصغيرة على اى اثر ، سوى فردة حذاء لها سقطت من قدمها اثناء اختطاف الأثمة المجرمون إياها ! .. وكانت جماعة من الغجر الرحل ـ النور ـ قد شوهدت فى ضواحى المكان فى ذلك الصباح ، ومن ثم ساد الاعتقاد بأنهم الذين سرقوا الطفلة !

● وفى ساعة متاخرة من ذلك النهار ، بعد ان عادت الأم المنكوبة من جولة عقيمة للبحث عن طفلتها ، وجدت طفلا مخيفا مشوها ، اعرج الساق ، ذا عين واحدة ، يزحف على ارض الحجرة .. فازعجها ان تفجعها الاقدار فى فلذة كبدها الجميلة على هذا النحو وترزقها بدلا منها بذلك المخلوق الشائه ! .. وادركت ان الأمر انتقام إلهى انزله الله بها عقابا لها على خطايا شبابها ، فحملت فردة حذاء طفلتها وقطعت الطريق إلى باريس على قدميها .. وهناك سجنت نفسها فى زنزانة مدام رولاند بميدان « دى جريف» ، وعاشت منذ ذلك التاريخ تقتات من بقايا الطعام التى يلقى بها إليها المحسنون واهل الخير .. وقد اطلق الكل عليها « الأخت جودول » ، فى حين كان اسمها الحقيقى : «باكيت لاشانتفلورى » .

اما اللقيط المشوه الذى تركته فى بيتها فقد صلى عليه كاهن البلدة ليخرج الشيطان من روحه ثم ارسله إلى باريس ليعرض كلقيط فى كنيسة نوتردام !

٦ ــ برىء يتعذب !

● ولنعد إلى العصر الذى بدات فيه حوادث هذه القصة . . كانت الزنزانة التى حبست الأخت «جودول» نفسها فيها تقع على مرمى البصر من آلة التعذيب التى حكم على كازيمودو التعس بأن ياخذ قسطه من العقاب بواسطتها . . وكان الاصم المسكين يجهل الحكم الذى صدر ضده ، وبالتالى المصير الرهيب الذى ينتظره ، فترك نفسه يقيد إلى عجلة آلة التعذيب دون احتجاج . ولم يعرف ما سوف يصيبه إلا حين لمح السوط الجلدى المحشو بالرصاص الذى تقرر أن يجلد به ! . . فلما انهالت ضربات السوط الأولى على ظهره المحدودب العارى جاهد عبثا كى يفلت من العقاب ، لكنه لم يلبث ان احتمل عذابه فى صمت واستسلام ! . . وجلد حتى سال دمه انهارا على جسمه ، ثم وضع فى آلة التعذيب كى يبقى فيها لمدة ساعة يقاسى خلالها ــ إلى جانب الآلام الجسدية ــ سخرية الجماهير المنحلة الخلق ! . . وفى نفس الميدان الذى سار فيه موكبه بالأمس حين توج ملكا للمغفلين ، عرض كازيمودو التعس اليوم امام انظار الجموع الغادرة كى تتشفى فيه وهو يتعذب !

وبعد برهة راى الأحدب اسقفا يعبر الميدان على ظهر بغلة ! فلم يكد بصره يقع عليه حتى اضاءت معالم وجهه الشائه وارتسم عليها تعبير سمح رقيق ، ينم عن الارتياح بل والفرح ، كأنما توقع المسكين ان يخلصه الأسقف من عذابه . . لكن الأسقف لم يكد يتعرف على شخص المحكوم عليه ويتبين وجهه حتى لوى عنان بغلته واسرع بالابتعاد ! . . وهكذا جوزى كازيمودو بالهجر ــ فى غير رحمة ــ من جانب المخلوق الوحيد

الذى احبه فى حياته ، والذى كان وحده السبب فى عذابه الحالى ! . . فقد كان الأسقف هو الذى امره باقتناص الفجرية الحسناء ازميرالدا فى الطريق فى الليلة السابقة . . وهو الذى رافقه اثناء إقدامه على المحاولة !

٧ ــ عندما تغفر المراة !

● ولم يكد الأسقف الجاحد يبتعد حتى احس الاحدب التعس ــ الذى تحطمت الآن نفسه بعد ان تحطم من قبل جسمه ــ بنوبة ظمأ شديدة ، فاطلق صرخته الملتاعة : «ماء ! . . ماء ! » . . فما كان من الجماهير القاسية إلا ان اجابت على توسلاته المثيرة للاشفاق بالقاء الأحجار والقاذورات عليه !

وبعد ان كرر كازيمودو صرخته لثالث مرة ، راى حسناء تقترب من آلة التعذيب ، تتبعها عنزة . . فتبين فيها من فوره الفتاة التى حاول بالأمس ان يختطفها ، لحساب الأسقف اللعين . . وادرك لتوه انها اقبلت لتتشفى وتمعن فيه ضربا وتحقيرا ، وهو المحروم من كل حول او طول . . فالتمعت عيناه غيظا وحاول ــ عبثا ــ ان يتجنبها ! . . لكن المراة بدلا من ان ترفع يدها عليه ، تناولت من جرابها وعاء مملوءا بالماء ، قدمته إلى شفتيه المحترقتين ! . . فانحدرت الدموع من عينى كازيمودو الحمراوين كالدم وهو يلتهم محتويات الوعاء فى نهم شديد . . !

● على ان انتباه الجماهير لم يلبث ان تحول عن هذا المنظر المؤثر ليصغى إلى عبارة تنضح بالمرارة ، انطلقت من الاخت « جودول » التى كانت ترقب كل شىء من زنزانتها ! . . فان مراى الراقصة الفجرية قد اثار كامن حفيظتها وحقدها ،

فصاحت : « فلتلعنك السماء يا سليلة السحرة الآثمين .. فلتلعنك .. فلتلعنك ! » .

وفيما كانت ازميرالدا تهبط سلم آلة التعذيب ، كانت التائبة شبه المخبولة تواصل صيحاتها : « انزلى!.. انزلى.. يا سارقة الأطفال!.. سوف تصعدين إلى هذه الآلة نفسها.. ذات يوم ! » .

● وعاد كازيمودو إلى نوتردام ليستأنف قرع الأجراس ، ولكن بحماسة تضاءلت كثيرا عن ذى قبل ! .. فحتى اليوم الذى شد فيه إلى آلة التعذيب لم يكن يفكر فى شىء سوى كنيسته وأجراسه وسيده الأسقف .. اما الآن فان ذهنه قد بات مثقلا بذكريات المخلوقة الملائكية التى كافاته على محاولته اختطافها ، باسعافه فى محنته ! .. هى دون الناس جميعا !

واحتل التفكير فى المخلوقة ذاتها ذهن الأسقف أيضا ، فصار دائم التفكير فيها خلال الساعات الطويلة التى كان يقضيها منفردا فى حجرة سرية بكنيسة نوتردام ! .. كان قد عرف بأمر الزواج « العذرى» الذى تم بين الفتى جرنجوار وبين ازميرالدا ، كما عرف أيضا ــ باستجوابه الماكر لذلك الفتى ــ ان افكار الغجرية الحسناء وقلبها قد علقا بشخص يدعى « فيباس » وإن لم يعرف عن هذا الــ « فيباس » أية معلومات أخرى خلاف اسمه !

● واستمرت ازميرالدا تعرض رقصاتها الغجرية فى الشوارع والميادين ، تصحبها عنزتها و «زوجها» جرينجوار.. وإن بدا انها وهذا الزوج شغوفان بالعنزة اكثر من شغفهما



تناولت من جرابها وعاء مملوءًا بالماء ، قدمته إلى شفتيه المحترقتين ..

كل بصاحبه ! .. فقد كانت الرابطة الحقيقية التى تقيدهما احدهما إلى الآخر لا تزيد عن اضطرار ازميرالدا إلى مراعاة المظاهر فيما يتصل بذلك الزواج ، وفاء منها بعهدها بشأن إنقاذ حياته .. اما فيما يختص به هو فقد كانت ملازمته إياها مبعثها احتياجه إلى المأوى والطعام اللذين تكفلهما له !

٨ ـ الأسقف العاشق ! ..

● وانقضت اسابيع ، اتصلت خلالها ازميرالدا بذلك الضابط الذى انقذها ، المدعو «فيباس» ، وقبلت آخر الأمر ان تلقاه ذات ليلة فى احد البيوت المريبة ! .. وكان من بين رفاق السوء الذين يعاقرون الخمر مع الضابط فى الحانات والمواخير ، شقيق الأسقف المدعو « جيهان » ! .. وقد قضى الصديقان بضع ساعات معا قبيل موعد لقاء الضابط بصاحبته الغجرية فى تلك الليلة ، وكان الأسقف قد تبع اخاه سرا إلى الحانة وسمع « فيباس » يبوح له بأمر الموعد والمكان اللذين سيلقى فيهما ازميرالدا ! .. فلما غادر الضابط الحانة تاركا صاحبه فيها مخمورا لا يكاد يعى ، تبعه الأسقف إلى المنزل المريب .. وهناك توصل بسلسلة من الحيل الماكرة إلى التسلل إلى غرفة ملاصقة لتلك التى يحتلها العاشقان ! .. ولبث يرقبهما من خلال فتحة فى الباب وهما يتطارحان الغرام ، حتى اعمته الغيرة الجنونية آخر الأمر فاقتحم المخدع على العاشقين وطعن الضابط طعنة وحشية سقطت الغجرية من هولها مغمى عليها ! .. فلما افاقت وجدت نفسها محوطة بثلة من رجال الشرطة ، وكان حبيبها « فيباس » غارقا فى بركة

من الدم .. اما الأسقف فلم يكن له من اثر ! .. كان قد فر من نافذة مطلة على النهر .. !

● وقدمت الراقصة الغجرية إلى المحاكمة بتهمة قتل الضابط ، « بمساعدة الشيطان واسقف وهمى ! ».. ولم تعبأ المحكمة بكون الضابط المجنى عليه لم يمت ، وإنما بدا يتماثل للشفاء !

وانكرت ازميرالدا فى البداية التهمة الموجهة إليها .. لكنها تحت ضغط أساليب التعذيب الوحشية التى اتبعت معها اضطرت فى النهاية إلى الاعتراف ـ كذبا ! ـ بتهم السحر والشعوذة والقتل .. الخ .. فحكم عليها بأن تكفر عن ذنبها بالوقوف فى مكان اشبه « بقفص الاتهام » فى مدخل كنيسة نوتردام ، كى تتفرج عليها الجماهير وتتعظ بعبرتها .. وبعدئذ تساق إلى ميدان «دى جريف» حيث تعلق فى حبل المشنقة ..!

على اثر صدور الحكم القيت التعسة فى زنزانة مظلمة فى بدروم قصر العدالة .. وإذا الحورية الحسناء التى كانت تمرح فى شوارع باريس وترمز للبهجة والحرية والنور ، ترسف الآن فى الاغلال فى كهف معتم كالقبر !

وقالوا لها ان حبيبها « فيباس » قد مات ، فلم تعد تطلب لنفسها غير الموت ! .. وزارها الأسقف فى زنزانتها ، وباح لها بهواه .. بل اعترف لها بالدور الذى لعبه فى حادث محاولة اختطافها ، ثم فى حادث الاعتداء على فيباس .. ثم اضاف انه على استعداد لان يمكنها من الفرار من سجنها ـ ومن الموت ! ـ إذا قبلت ان ترحل معه إلى الريف !.. لكنها

رفضت هذا العرض فى إباء ، قائلة انها تؤثر الموت على ان يكون لها معه اى شأن .. فتركها الأسقف إلى مصيرها وهو يحرق الارم غيظا !

٩ ـ المراودة .. !

● وحل اليوم المرهوب ، المحدد لتنفيذ الحكم ، فاقتيدت ازميرالدا إلى كنيسة نوتردام ، كى يتولى رجال الدين إعدادها روحيا للموت ! .. ولم يكن المنوط بهذا الاعداد غير صاحبنا الأسقف العاشق « كلود فروللو » ! .. وفيما هو يقوم بالمراسم الدينية المألوفة فى مثل هذه المناسبات لم يكف عن أن يهمس للفتاة بصوت خفيض مكررا توسلاته واستعطافه ، قائلا ان الفرصة ما تزال سانحة امامه لانقاذها .. لكن رفضها كان حازما قاطعا ، شأنها فى المرة الأولى !

وفيما هى تساق إلى الميدان الذى نصبت فيه المشنقة ، رفعت عينيها إلى نافذة منزل حبيب إلى قلبها ... وكم كانت فرحتها وذهولها حين رات فى النافذة معشوقها فيباس ، بلحمه ودمه ! .. فصرخت مستنجدة به ، لكنه انسحب من فوره متواريا عن النافذة ، ومعه امراة كانت واقفة إلى جواره .. وعند هذا سقطت ازميرالدا مغشيا عليها !

● وكانت الجماهير المحتشدة حول كنيسة نوتردام مشغولة بمراقبة حركات الراقصة الغجرية وسكناتها ، فى ساعاتها الاخيرة ، فلم يتنبه فرد منها إلى الأحدب كازيمودو وقد اطل من برج الأجراس .. ولا لحظوا الحبل الذى دلاه من مكانه إلى الأرض ! .. فلما أغمى على الغجرية امسك كازيمودو بالحبل

وانزلق عليه فى مثل لمح البصر كما تنزلق قطرة المطر على لوح من الزجاج ، وسرعان ما كان بجوار أزميرالدا ، يسدد لكماته المخيفة إلى حارسيها فيلقى بهما ارضا ثم يختطف المراة ويقفز بها إلى باب جانبى من ابواب الكنيسة وهو يصيح «المحراب!.. المحراب ! » ... فقد كان مجرد ولوجها محراب الكنيسة حائلا يقف بين سلطان القانون وبين ان يبلغها او يمسها بسوء !

وحمل كازيمودو حمله اللطيف إلى غرفة صغيرة فى اعلى برج الكنيسة .. وبعد ان اطعمها وقدم لها الفراش المريح قال لها : «ينبغى ان تلزمى هذه الحجرة خلال النهار فلا تبرحيها .. اما فى الليل فتستطيعين التجول فى انحاء الكنيسة كما تشائين ، على أن لا تجاوزى بابها الخارجى قط ــ سواء فى الليل او النهار ــ والا قتلوك ، فتكون تلك نهايتى انا الآخر!».

وفى نفس الليلة وجدت ازميرالدا عنزتها الحبيبة إلى جوارها فى مخبأها .. لقد جلبها لها عاشقها المشوه المتفانى ، إمعانا فى إسعادها .

١٠ ـ المؤامرة .. !

● وادرك الأسقف المحنق ان الأحدب لن يكف عن العناية بامر ازميرالدا ما بقيت داخل جدران الكنيسة ، فراح يدبر الحيل لاخراجها من مخبأها الآمن باية طريقة ! .. ومن ثم اتصل بـ « زوجها » جرنجوار ، وخدع الشاعر الغرير زاعما له ان سلامة زوجته تقتضى اخراجها من الكاتدرائية باسرع ما يستطاع ! .. ثم سأله ان يفكر فى وسيلة لاخراجها منها .. وبعد نقاش وجدل طويلين، قبل الشاب ان يتولى إقناع عصابة

الاشرار التى تقيم فى وكر « كور دى ميراكل » بأن يهاجموا الكاتدرائية و « يحرروا » الراقصة الفجرية من « سجنها » !

● وفى الليلة التالية ، فيما كان كازيمودو مطلا من نافذة برجه ، لمح جمعا هائلا من الناس مقبلا نحو الكنيسة .. كان ذلك جيش الاشرار ! .. وسرعان ما بلغ هؤلاء ابواب « نوتردام » ، فشرعوا من فورهم فى مهاجمتها بكافة الادوات والاسلحة التى فى متناولهم .. ولكن قبل ان يتمكنوا من احداث اية ثغرة فى اسوارها القى عليهم الاحدب كتلة ضخمة من الخشب سقطت وسطهم فقتلت اكثر من عشرة منهم !

لكن العدوان بدلا من ان يخيفهم اثار ثائرة حنقهم وعنادهم فنسوا قتلاهم وتناولوا الكتلة الثقيلة فاتخذوها اداة يهاجمون بها باب الكاتدرائية بكل قواهم ! .. وإذ ذاك عاد كازيمودو يلقى على رؤوسهم وابلا من الأحجار الضخمة التى تركها البناءون على سطح البرج اثناء قيامهم باصلاحه منذ عهد قريب .. واحدثت الأحجار بالمهاجمين اصابات رهيبة ، لكنهم كانوا من الكثرة والإمعان فى الشر بحيث لم يكن واحد منهم يسقط صريعا حتى يأخذ مكانه الآخر ! ..

واوشكت ذخيرة كازيمودو ان تنفد ، لكن عزيمته لم تهن او تتراخ .. فبدأ يوقد شعلات من النار فى مزاريب البرج المعدة لتصريف مياه الأمطار ، والمبطنة بالرصاص .. فلم تمض دقائق حتى تدفق الرصاص المصهور على المهاجمين فى فيضان مروع !

● ولكن ، لم يلبث ان وصل إلى ابواب الكنيسة ذلك الفتى الماجن « جيهان » ، شقيق الأسقف ، وقد حمل معه سلما عالية

اسندها إلى جدار الكاتدرائية وصعد عليها هو ورفاقه ، آملين أن يستطيعوا القفز من اعلاها إلى احد أروقة الكنيسة ، على ارتفاع ثمانين قدما .. ولكن لم يكد جيهان يضع قدميه داخل الرواق ، قبل ان تتسع الفرصة لزميله التالى له كى يحذو حذوه ، حتى كان الاحدب قد خف إلى الرواق .. وبكل قواه دفع السلم بمن عليها إلى الوراء ، فسقطت بمتسلقيها جميعا فوق رؤوس اخوانهم المحتشدين فى اسفل ، فقتل من هؤلاء من قتل .. ومات المتسلقون عن آخرهم ! .. ثم استدار كازيمودو الى «جيهان» فرفعه بين يديه كما يحمل طفلا وطوح به بكل قوته إلى الهاوية !

١١ ـ الاختطاف .. !

● فى هذه الاثناء كان رجال الحرس الملكى ـ بقيادة الضابط « فيباس » ـ قد وصلوا إلى مكان الشغب ، فى اللحظة التى كان فيها الاشرار يتأهبون لنصب سلالم اخرى يتسلقونها إلى البرج .. ففاجأهم الجنود من الخلف واعتقلوا زعماءهم وشتتوا شمل الباقين ! .. فلما ايقن كازيمودو من فشل الهجوم ، اندفع صوب مخبأ ازميرالدا كى يطمئنها على سلامتها .. لكنه حين دخل الغرفة الفاها خالية ! .. ففيما كانت المعركة محتدمة على اشدها تسلل جرنجوار والأسقف إلى داخل الكنيسة من باب سرى لا يمكن ولوجه إلا من ناحية النهر . وكان الأسقف متنكرا بحيث لم تتعرف ازميرالدا عليه لأول وهلة حين دخل عليها .. فلما كشف عن شخصيته ذعرت المسكينة ! .. ومرة اخرى باح لها الشرير بحبه واعدا اياها بانقاذها إذا قبلت ان تكون له .. لكنها اصرت على الرفض! ..

فما كان منه إلا ان اقتادها عنوة إلى الخارج ومضى بها إلى ميدان «دى جريف» حيث سلمها إلى الأخت «جودول» فى زنزانتها ، صائحا بها : « جودول ! إليك الساحرة التى تمقتينها ! .. احتفظى بها حتى استدعى رجال الشرطة ! » .

● واطاعته الشمطاء التعسة .. وفيما هى تحتفظ برهينتها اخذت تثرثر لها بقصة أحزانها ومأساة فقدها ابنتها التى اختطفها الغجر فى طفولتها .. ثم عرضت عليها فردة حذاء الطفلة التى ابقتها فى حوزتها منذ ستة عشر عاما ! .. فلم تكد ازميرالدا تلمحها حتى اخرجت للمراة من صدرها كيسا صغيرا يحتوى على فردة الحذاء الأخرى !

وارتمت الأم والابنة فى احضان إحداهما الأخرى باكيتين !

١٢ ـ الفجيعة !

لكن فرحتهما لم تطل اكثر من ثوان .. ريثما تذكرتا الأسقف الذى مضى لاستدعاء رجال الشرطة ! .. فانتابهما الذعر والفزع ، وفيما هما تفكران فى وسيلة للفرار ، وصل الجنود .. ودار بين الفريقين صراع يائس، قتلت اثناءه الأم .. ثم اقتيدت الابنة إلى المشنقة ، كى ينفذ فيها الحكم ! .

● اما الأسقف فعلى اثر تسليمه أزميرالدا إلى رجال الشرطة عاد إلى حجرته فى الكاتدرائية كى يراقب من نافذتها تنفيذحكم الاعدام فى .. معشوقته !

وفيما هو يتأمل جسدها يتأرجح فى حبل المشنقة ، وهو ما يزال يختلج بالحياة ، اقبل الاحدب من خلفه ـ وقد ادرك الدور الذى قام به سيده ، وغريمه ! ـ فرفعه بين يديه وطوح

به إلى الشارع ، حيث دق عنقه على الرصيف ، فمات لساعته !

● ولم يقع بصر احد على « كازيمودو » منذ تلك الليلة ! .. ولكن حين فتح اللحد الذى أودع فيه جسد أزميرالدا ، بعد سنوات طويلة ، وجدت فيه بدل الجثة جثتان : إحداهما لامراة .. والأخرى لرجل ، احدب !

ولما كانت عظمة عنقه قد وجدت سليمة تماما ، فقد ثبت بما لا سبيل إلى الشك فيه انه لم يشنق ، بمعرفة سلطات العدالة !

وإذن فلا ريب أنه قد مضى باختياره إلى القبر ، ورقد بجوار محبوبته .. حتى مات !

* * *


SCENES DE LA
VIE DE
BOHEME
Par
HENRI MURGER
صور من الحياة
البوهيمية
هنرى مرجيه

المؤلف
(١٨٢٢ — ١٨٦١)

● هنرى مرجيه كاتب فرنسى من اصل المانى ، ولد فى باريس فى ٢٤ مارس سنة ١٨٢٢ .. وقد عمل فى شبابه كاتبا لدى احد المحامين ، فسكرتيرا للكونت اليكسى تولستوى ، ثم صحفيا .. وفى سنة ١٨٤٨ (وهو فى السادسة والعشرين) كتب قصته هذه الشائقةالتى كانت اساس مجده الادبى، برغم انها كانت قصته الاولى ، والتى ما تزال تعتبر اروع قصصه على الاطلاق .. ولعل مرجع نجاحها إلى انه « عاش » بالفعل كل صفحة من صفحاتها ، وصور بكل امانة وحرارة وبراعة — فى شخصية بطلها « رودلف » — اطوار حياته الواقعية وحياة اصدقائه البوهيمين من اهل الفن فى الحى اللاتينى .. وقد بلغ رواج القصة عند نشرها انها اقتبست للمسرح ومثلت بنجاح عام ١٨٤٩، كما صيغت منها اوبرا « لابوهيم » الغنائية التى لحنها الموسيقى « بوتشينى » عام ١٨٩٨ وما تزال تمثل على اعظم مسارح الاوبرا فى العالم منذ ذلك التاريخ ..

ومن قصص هنرى مرجيه الاخرى : « اديلين بروتا » (١٨٥٣) و « شاربو الماء » (١٨٥٥) وديوان شعر « ليالى الشتاء » .. وقد مات مرجيه فى ٢٨ يناير سنة ١٨٦١

١ — فنان فى محنة

● استيقظ « الكسندر شونار » فجاة فى ذلك الصباح من احد ايام شهر ابريل عام ١٨٤٠ على صياح ديك فى إحدى الدور المجاورة .. فقفز من فراشه وهو يهتف :

— اف ! .. ان ساعتى المنبهة ذات الريش والعرف متقدمة عن موعدها ولا بد .. فليس من المعقول ان يكون النهار قد اشرق !

بيد ان النهار كان قد اشرق فعلا .. واى نهار ؟ .. النهار الذى كان لا بد له من ان يدبر خلاله الخمسة والسبعين فرنكا التى يدين بها للمسيو برنار لقاء اجر الغرفة التى كان يقيم فيها .. والنهار الذى كان لا بد له من ان يعثر فيه على مسكن جديد ، بعد ان انذره مسيو برنار بان يخلى الغرفة مع دقات الساعة الثانية عشرة ظهرا ، ليحل محله فيها ساكن جديد ..

ووقف الشاب الفنان ، الذى كان يحاول ان يشق طريقه فى ميدان الرسم والموسيقى على نهج الفنانين المتحررين .. وقف حائرا يفكر .. لم يكن ثمة شك فى انه لا يملك من الفرنكات الخمسة والسبعين شيئا .. بل ان كل ما اوتيه فى دنياه من متاع لم يكن ليعادل هذا المبلغ — لو سلمنا بانه كان من المحتمل ان يجد لهذا المتاع الضئيل مشتريا ! .. اذلك لم يكن المسكين بملك سوى ان يدع نفسه للقدر ، لعل القدر ان يشفق عليه فيهيىء له اسباب الحصول على غرفةاخرى .. او يسوق إليه صديقا يقرضه ما يكفي لدفع الأجر الذى يطالبه به مسيو برنار .. او ربما ..

وتاهب شونار لأن ينطلق فى شوارع باريس ، والاحتمالات
المتفائلة تداعب خاطره .. غير ان احتمالا آخر اوحى إليه ان
رياح الحظ قد لا تاتيه بما يشتهى ، فآثر ان يحشو جيوبه
الواسعة باكبر عدد من الأشياء التى كان يمتلكها ، وان يحزم
اقمصته وبعض حاجياته الضرورية .. فلربما !؟

بيد انه لم يكد يبلغ الباب الخارجى حتى الفى حارس البيت
يتصدى له ، مصرا على ان لا يدعه يخرج ما لم يترك حزمة
متاعه خلفه ! .. وحاول شونار ان يجادله ، ولكن البواب
صاح فيه : « ان تعليمات مسيو برنار واضحة ومشددة ..
لا ينبغى ان تنقل دبوسا من الغرفة حتى تدفع الايجار المتاخر ! » .

غير ان قلب البواب لم يكن يملك سوى ان يلين .. فقد
كان يعيش فى الحى اللاتينى ، فكان لا بد للبوهيمية المسيطرة
على الحى من ان تصهره وتجعل منه هو الآخر .. بوهيميا ..
وهكذا لم يلبث ان ترك شونار يخرج ، وهو يقول له : « ولكن
.. تذكر انك إذا كنت معتزما ان تنقل متاعك ، فمن المستحسن
ان تعجل بذلك ، فان المستاجر الجديد قادم ظهر اليوم ..
اى .. بعد نصف ساعة ! » .

ولم يكد شونار ينصرف ، حتى اقبل شاب طويل ، ذو قبعة
بيضاء عريضة الحافة ، يتبعه حمال رفع على ظهره عدة اشياء
بدت كستائر الرسامين ولوحاتهم .. والتفت الشاب إلى
الحمال فامره بان يسند حمله إلى جدار الدار ويعود فيحضر
بقية المتاع .. ونفذ الحمال الأمر ، وان هى إلا برهة وجيزة
حتى عاد بحامل للوحات ، وببعض اشياء خفيفة اخرى ضمها
إلى سابقتها ..

وتحول الشاب ذو القبعة البيضاء إلى البواب فعرفه بانه
الساكن الجديد ، وعندئذ رجاه البواب ان ينتظر قليلا فلن
يلبث ان ياتى الساكن القديم لنقل متاعه ..

وانتظر الشاب .. وطال الانتظار .. وتململ ، ثم تحول
التململ إلى ضجر وضيق ، فارسل يستدعى صاحب البيت ..
واقبل مسيو برنار يعتذر عن التاخر فى إخلاء الغرفة .. وتلفت
حوله ، ثم قال : « ومع ذلك ، فان متاعك لم يصل بعد يا مسيو
مارسيل ! » .

وشد ما كانت دهشته إذ اشار الشاب إلى الاشياء التى
احضرها الحمال ، وفض إحدى اللوحات وبسطها فاذا بها تبين
مدخلا انيقا ذا اعمدة وزخارف وجدران مزدانة بلوحات من
تحف اقطاب الفن ، وقال : « معذرة .. بل هاك متاعى .. ان
الأثاث العادى اثقل من ان يحتمله ذوقى .. ثم انه شىء عادى ،
شائع لدى الناس .. وانا احب ان يكون لى طابعى الخاص » .

وعجب صاحب البيت ، فلم يتمالك ان قال : « ولكنك
لا تملك سريرا ، فاين تراك تنام ؟ » .

واجاب مارسيل فى هدوء : « فى رعاية القدر » .

وكان لا بد لمسيو برنار من ان يعيد التفكير فى امر هذا
الساكن الجديد .. ان الاثاث ضمان لا بد منه لما قد يتهدده
من خسارة إذا عجز الساكن عن ان يسدد الإيجار ! ..
وفجاة ، تذكر مسيو برنار ان الساكن القديم مسيو شونار لم
ينقل بعد اثاثه .. وما كان من المحتمل ان يستطيع تسديد
الإيجار المتاخر ليدعه صاحب الدار ينقل الاثاث .. وهكذا ،

فى سرعة الخبير المجرب ، استطاع مسيو برنار ان يبنى على الموقف صفقة جديدة ، فصارح الفنان بانه على استعداد لان ينزله فى الحجرة ويمكنه من استغلال ما فيها من اثاث إن هو رفع الايجار الشهرى إلى خمسة وعشرين فرنكا !

ولم يتردد مسيو مارسيل فى القبول .. وكان عليـــه ان يدفع مقدما ، فاخرج ورقة مالية من فئة الخمسمائة فرنك .. وكأنما كان للورقة فعل السحر فى نفس صاحب الدار ، فاد به يضاعف من احترامه للساكن الجديد ، ويرافقه بنفسه إلى الحجرة التى كان يشغلها مسيو شونار الطريد !

٢ ـ البوهيميون الثلاثة

● فى تلك الاثناء ، كان الفنان الذى حذق الاقتراض حتى اصبح فنا جديدا من فنونه ، يذرع باريس سعيا وراء الفرنكات الخمسة والسبعين التى يحتاج إليها لاسترداد متاعه من قبضة مسيو برنار ..

ولكن الحظ خانه فى ذلك اليوم .. فلمـــا وافت الســـاعة السادسة احس بقبضة الجوع تدق الأجراس فى معدته تنبهه إلى ان الوقت قد حان ليصيب قسطا من الطعام .. ولم يكن قد استطاع ان يستخلص من معارفه واصدقائه اكثر من خمسة فرنكات ! .. لذلك لم يتردد فى ان ييمم شـــطر مطعم صـــغير متواضع ، طلب فيه شيئا من لحم الارانب ، وبعض النبيـــذ المعتق ..

وفى فترة الانتظار ، راح يتأمل الشاب الجالس إلى المنضدة المجاورة .. فاذا به شاب نحيل ، بادى اللطف ، ذو عينين

زرقاوين واسعتين ، وشعر اشقر كثيف ، وقد ارتدى قبعة ذات حافة مسرفة العرض وبزة خضراء حـــال لونهـــا لفرط الاســـتعمال .. وكان ينصرف إلى القـــراءة وتـــدوين بعض الملاحظات ، بينما انتفخت جيوبه بما حشاها من كتب ..

ومل شونار الانتظار ، فدعا الساقية يسألها عن الطعام ، بعد ان ازال سدادة زجاجة النبيذ ، وشد ما كان استياؤه إذ انبائه بان لحم الأرانب قد نفد ، واشارت إلى جاره المستغرق فى القراءة قائلة : « لقد حصل السيد على آخر قطعة .. ».

ولمح الشاب استياء شونار ، فازال الفضلات عن حافـــة طبقه ، ودفعه نحوه قائلا فى لهجة ودية : «نستطيع ان نتقاسم معا هذا الجزء .. لو سمح السيد وقبل دعوتى .. » .

وحاول شونار ان يحتج ، ولكن وخزات الجوع ما لبثت أن اضطرته إلى قبول الدعوة .. واقدم فى مقابل هذا على طلب زجاجة اخرى من النبيذ يتقاسمها مع زميل المائدة .. وسرعان ما الف كل منهما الآخر وسادهما الانسجام ، وراحا يتباريان فى الكرم المتواضع على قدر ما كانت تسمح لهما جيوبهما ، حتى إذا غادرا المطعم بعد ساعتين او ثلاث ، كانا قد اصبحا صديقين حميمين .. وكان شونار قد عرف زميله بنفسه ، وعرف منه انه يدعى « جوستاف كولين » ، وانه فيلسوف بطبعه وسليقته ، يكسب رزقا متواضعا من إعطاء دروس فى العلوم الرياضية وبعض العلوم الأخرى .. وان هوايته الكبرى هى جمع الكتب ، حتى لقد كان باعة الأرصفة يعرفونه ..

ومضى الشابان البوهيميان يتسكعان ، حتى وجدا نفسيهما فى مقهى « مومى » بشارع سان جرمان ، حيث كان النقاش

يحتدم بين اثنين من الرواد ، أحدهما شاب ذو لحية عديدة الالوان، وراس نحل شعرها حتىاوشكت ان تصير صلعاء.. وحيا الشاب كولين حين ولج مع شونار المقهى ، ثم لم يلبث ان انضم إليهما وراح يجاذبهما اطراف الحديث ، بعد ان قدمه كولين على انه اديب يسمى « رودلف » .. ووجد الزميلان لديه التبغ الذى كان ينقصهما، فاستمرءا كرمه، وقابلاه بدعوة الى الشراب اخذت تتكرر كلما اوغلوا فى الحديث عن الأدب .. حتى إذا لم يعد من سبيل إلى البقاء فى المقهى ، نهض الثلاثة يتهيأون للانصراف ، وإذا السماء قد فتحت عيونها بسيل منهمر .. وكان كولين يقيم فى احد اطراف باريس القصية ، ورودلف يقيم فى طرف آخر لا يقل عنه بعداً .. والليل حالك.. والمطر مسترسل .. فقال شونار وقد نسى انه اصبح بلا مأوى :

— تعاليا معى ، فانى اقيم على مقربة ، واستطيع ان استضيفكما ..

وإذ بلغ الثلاثة المسكن الذى كان لشونار حتى الظهر ، دهش الشاب لأول وهلة إذ وجد المفتاح فى ثقب الباب ، وكان يظنه فى جيبه .. وزاد عجبه حين سمع الحانا تنبعث من معزفه فى داخل الحجرة .. وشاطره زميلاه دهشته وعجبه ، فاخذ ثلاثتهم يبحثون الامر .. وإذا الباب يفتح ، ويظهر مارسيل على عتبته حاملا شمعدانا ذا ثلاثة شعب ، وقف يتأملهم على ضوئه ، ويسألهم بغيتهم ..

واستطاع ان يفهم بعض الشىء عن الموقف ، فدعا الاغراب الثلاثة إلى الداخل ليبحثوا الأمر .. وسلم شونار لخلفه بأنه

لم يعد ذا حق فى ان يعتبر الحجرة مسكنه .. وسلم مارسيل بدوره بانه ليس ذا حق فى المتاعالذى بها .. وبينما كان الشابان يدرسان الموقف ، أخرج كولين ورودلف من جيوبهما قطعة من اللحم البارد ، وزجاجتين من النبيذ .. ولم يتردد الآخران فى الانضمام إليهما .. وان هى إلا ساعة ، حتى كان البوهيميون الأربعة يغطون فى سبات عميق .. فى مقاعدهم !

● وكان على رودلف فى الصباح ان ينصرف ليصحح «بروفات» صحيفة للأزياء كان يراس تحريرها .. كما انصرف كولين إذ كان على موعد ليلقى درسا على امير هندى وفد على باريس ليتعلم العربية ! .. ووعد الاثنان ان يعودا فى منتصف النهار ليتناولا الغداء تلبية لدعوة مارسيل .

ولم يكد مارسيل وشونار ينفردان ، حتى اتفقا على ان يتشاطرا المسكن ، وان يدفعا اجره بالتناوب.. وسر الزميلان الآخران حين عادا وعلما بهذا الاتفاق ، فدعا رودلف الجميع إلى العشاء احتفالا بهذه المناسبة ، إذ كان قد تقاضى من الصحيفة ثلاثين فرنكا .. على الحساب ! .. ولم يشأ كولين ان تفوته الفرصة ، وكان قد أصاب من الأمير الهندى بعض النقود ، فدعاهما إلى سهرة فى مشرب « مومى » ، الذى قدر له ان يكون ملتقى هؤلاء « الفرسان الأربعة » لعدة سنوات تالية ..

٣ — ميمى

● وانتهى الأمر « بالفرسان الأربعة » إلى ان اقاموا فى مسكن واحد فوق سطح إحدى دور الحى اللاتينى ، اطلقوا

عليه اسم « بوهيميا » .. فقد كانت حياة الشبان الأربعة — رودلف الشاعر ، ومارسيل الرسام ، وكولين الفيلســوف ، وشونار الموسيقى — مثالا للبوهيمية .. كانت تسودهم أخوة صادقة تجعلهميتقاسمون السراء والضراء .. ما يكسبه احدهم ملك للجميع ، وما ينقص الواحد منهم يتكاتف البــاقون على تحقيقه .. وفوز الواحد فوز للكل .. فى حين أن ما يصـيب احــدهم من خيبــة كان يجمع الباقين حــوله يواســونه ويشاطرونه ..

وهكذا كانت تمر بهم ايام رفاهية ورخاء ، فاذا هم يعنون باناقتهم ، ويولمون لأنفسهم المآدب .. وتمر بهم ايام اخرى تبلى نعال احذيتهم خلالها فلا يملكون لها إصلاحا ، ويضطرون إلى القصد فى المأكل ، بل إلى الصيام احيانا ، حتى ليبيتون على الطوى ! — ويفتنون فى ابتداع الأساليب لمراوغة صــاحب البيت كلما طالبهم بالايجار ..

وكانوا فى إحدى هذه الفترات عند ما استغرق مارسيل فى رسم لوحة تنبأ بأنها ستكون التحفة التى تجعل لاسمه رنينا فى دنيا الفن ! .. واشتدت الضــائقة ذات ليلة ، والبرد قارس — حتى لقد اضطر رودلف إلى ان يطعم المدفاة باوراق الفصل الاول من مأساة شعرية كان يكتبها ، التماسا للنــار والدفء ! — وفيما مارسيل ورودلف يبحثان امر هذه الأزمة الخانقة ، يقبل كولين بحمل من الكتب لم يلق من يقبلها رهنــا مقابل قرض يخفف الضيق .. ويذهب فصل آخر من إنتــاج رودلف إلى المدفاة ! .. وفجاة ، يلج الغرفة اثنان من الحمالين

مثقلين بالطعام والوقود ، ثم يصل شونار ، فيلقى على المائدة مبلغا من المال !

ويستحيل الأسى فى «بوهيميا» إلى فرح .. ويذكر الفرسان الأربعة ان الليلة ليلة عيد الميلاد ، وما انساهم ذكرها سوى اليقين من أنهم ما كانوا ليملكون ما يمكنهم من الاحتفال بها .. وسرعان ما يقبلون على الطعام والشراب، بينما تتأجج النيران فى المدفاة .. ثم ينطلق الجميع إلى حانة «مومى» ، عدا رودلف الذى ينصرف إلى الكتابة ، واعدا بان يلحق بهم سريعا ..

ويخلو رودلف إلى اقلامه وورقه ، على ضوء الشمعة .. ولكنه لا يلبث ان يسمعطرقات خفيفة ، مترددة، على الباب .. فيصيح : « من الطارق ؟ » .

ويجيبه صوت نسائى مثقل بالتردد والحياء :

— لقد انطفأت شمعتى ..

ويهرع إلى الباب يفتحه ، فاذا امامه شابة نحيلة ، بادية الحسن ، أمسكت فى إحدى يديها شمعة مطفاة ، وفى الأخرى مفتاحا .. ويدعوها فى شهامة واشــفاق إلى الدخــول .. وتخطو إلى الداخل .. وما ادركت أنها بذلك قد سجلت دخول « حواء » إلى « بوهيميا » الصغيرة !

وتوقد الفتاة شمعتها ، وفيما هى تهم بالخروج ، ينــدفع خلال الباب تيار من الهواء ، يطفىء الشمعة .. وشمعة رودلف أيضا .. ولكن شعاعا من القمر ينساب خلال النافذة .. ويقع المفتاح من يد الفتاة ، فينحنى الاثنان يبحثان عنه .. ويعثر رودلف عليه ، ولكنه يخفيه ليطول البحث ! .. وتلتقى أصابعه

باصابع الفتاة وهما يبحثان ، فيمسك بيدها ، ثم يهتف مشفقا: « ما ابرد يدك ! .. دعينى ارد لها الدفء » ..

ويطمئن كل منهما إلى الآخر .. ويحدث رودلف جـــارته عن نفسه وحياته .. وتحدثه بدورها عن انها تدعى « ميمى » وانها تبيع الزهور لتكسب منها قوتها .. ولكن كسبها لم يعد يكفيها لمرضها .. ومن سعالها ونحولها ، يبدو انها مصـــابة باولى مراحل السل ، ولكن المرض لم يقو على ان ينـــال من جمالها ، بل انه على النقيض قد مسه بشىء من الروعة ..

وفجاة تنبعث اصوات زملاء رودلف من الطريق ينادونه وقد استبطأوا مقدمه ، فينضم إليهم و « ميمى » ..

وتتسع مملكة « بوهيميا » الصغيرة ، إذ تنضم إليها «ميمى» فتاة « رودلف » .. ثم تلحق بها « ميزيت » فتاة مارســـيل و « فيمى » فتاة شونار .. اما « كولين » فلم تكن له فتاة .. إذ كان فيلسوفا ! .. بيد أن ذلك لم يضر رفاقه فى شىء .. وكان اجمل ما فى حياة الجماعة ان كلا منهم كان مطمئنا إلى فتاته وسط رفاقه ، لا يداخله نحوهم بصددها اى شـــك او ريب .. ومع ان كلا منهم كان كلفا بفتاته خاضعا لسحرها ، إلا انه ما كان ليتردد لحظة فى ان يفضل أيا من اصـــدقائه على محبوبته .. كان الحب انانية القلب ولذته .. اما الصداقة فكانت انانية العقل ولذة الروح ، ومن ثم كانت ابقى واقوى..

* * *

● وحان عيد الميلاد من جديد .. وضمت حانة « مومى » الرفاق الاربعة وفتياتهم الثلاث ، وقـــد اســـتسلموا للمرح ،

وراحوا يشربون .. فى حدود ميزانيتهم المتواضعة ! .. وعبث الشراب بعقول الشبان ، فخرجوا على قيود منظم ميزانيتهم « شونار » وعهد كل منهم إلى فتاته بان تختار شرابا للجماعة .. وطلبت كل بدورها شرابا غالى الثمن .. وتفتحت شهيتهم بفعل الشراب ، فتناولوا عشاء جديدا ، وخادم الحانة يحملق فيهم مذهولا ، لا يدرى كيف سيتأتى لهم ان يدفعوا الحساب !

وحان موعد الانصراف.. واحصى الشبان ما كان معهم فاذا به لا يفى بالحساب.. وتشاور الأربعة، ثم اختاروا «شونار» ليفاوض صاحب الحانة .. وشاء القدر إلا أن يكون صاحب الحانة حين سعى « شونار » إليه مغيظا ، محنقا ، فاذا به يثير ضجة ، استرعت انتباه سيد غريب كان يجلس فى طرف الحانة يرقب الفريق المرح فى عطف ، وهو يدخن غليـــونه فى هدوء وسكينة .. حتى إذا فطن إلى الضجة ، نهض فانتحى بصاحب الحانة جانبا، وهمس فى اذنه ببضع كلمات، قال على اثرها الرجل : « لا بأس يا مسيو باربموش .. دبر الأمر كما يحلو لك » .

وإذ ذاك اقترب الرجل فى استحياء وسأل الفريق المرح أن يسمحوا له بان يستضيفهم ويسدد الحساب عنهم ، فلقـــد طالما راقبهم فى ترددهم على الحانة واستطاب روحهم ، وود لو يتعرف عليهم ويحظى بصحبتهم ..

وهكذا اصبح مسيو « باربموش » ـــ الذى وصف نفســـه بانه من طلاب الفنون الجميلة ـــ صديقا للجماعة « البوهيمية » .. وقرر الرفاق بعد ان تأمله كل منهم عن كثب أن يضموه عضوا منتسبا إلى شلتهم ..

٤ ـ ذكريات الحب

● كانت الليلة ليلة عيد الميلاد مرة اخرى .. بعد عامين او ثلاثة .. وقد تفرق شمل الجماعة السـعيدة ، فاذا رودلف ومارسيل يقيمان فى حجرتين منفصلتين فى احد الفنادق ، وقد هجرتهما فتاتاهما « ميمى » و « ميزيت » ! .. وسار الزميلان فى شارع « دوفين » يتأملان أنواع الشراب التى افتتنت المحال والمشارب فى عرضها .. وأخيرا، هتف رودلف: « لم لا نحتفل بدورنا بالعيد ؟ » .. فاجابه الرسام : « كيف .. ومع من ؟ » .

ـ معى طبعا ..

ـ ومن اين النقود ؟

وكانا يمران بمشرب ، فقال رودلف : « مهلا .. إننى اعرف بعض رواد هذا المشرب ، ولن أؤمن بالحظ بعد الليلة إن لم استطع انانتزع منهم ثمن عشاء متواضعوبعضالشراب» .. وغاب رودلف برهة فىالمشرب ثم عاد يحمل فرنكين .. واستقر راى الزميلين على ان يتناولا العشاء ويحتفلا بالعيد فى غرفة مارسيل .. وابتاعا ما راق لهما فى نطاق المبلغ الضئيل ، ثم آبا إلى الغرفة فاشعلا النار فى المدفأة .. وما ان فرغـا من اعداد المائدة ، حتى تبينا أن نفسيهما تعافا الطعام .. ورانت على المكان سكينة واجمة حزينة ، وقد ذكرا فتاتيهما وما كانتا تضفيان على مثل تلك المناسبة من بهجة وحبور .. ولكنهما لم يكونا يملكان إزاء الفراق حيلة .. كان مارسيل قد فاجأ ميزيت تغازل رجلا ، فلم يكد يلومها حتى انفجرت غاضـبة ، ودب بينهما الشجار الذى انتهى إلى فراق عاصف خلف فى النفسين آثارا ..

اما ميمى ، فكانت غيرة رودلف تنكد عليها عيشها ، ولكنها كانت تخلص الحب له .. وكان الســـل ينشـــب اظافره فى صدرها .. وإذ خشيت ان تنتهى علاقتهما بشقاق او خصام ، آثرت ان ترسم لها نهاية وديعة ، رقيقة كنفسها ..

وراح الشابان يقاومان لوعـــة البعـــاد ، ويموهان على نفسيهما .. ولكن عنادهما ذاب فى هذه الليلة ، ليلة العيد ، واشتد بمارسيل الحنين إلى ميزيت .. وبرح برودلف الشوق إلى ميمى .. وعز عليهما ان يعترفا بالضعف ، فقررا ان يحرقا كل ما خلفته الفتاتان من تذكارات ، يطعمان بها نار المدفأة ، ليطفئا نار الجوى والحنين ! .. ولكن مارسيل غافل زميله ودس فى صدره بعض ورود ذابلة من مخلفـــات فتـــاته .. وما فطن إلى ان رودلف بدوره قد انتهز فرصة عدم انتباهه واخفى نائرة البودرة ـ « البدارة» ـ التى كانت لميمى يوما .. وما كاد آخر التذكارات يتحول إلى هشيم ، حتى انبعثت على الباب طرقات خفيفة ، متـرددة ، فسـارع مارســيل إلى الاستجابة .. وانفلتت منه صيحة دهشة ، إذ راى امامـه « ميمى » .. او بالأحرى شبحها ، إذ كانت بالغة الهزال ، والوهن ، والإعياء ..

وقالت الفتاة وهى لا تتمالك نفسها من الارتجاف : « ارجو ان لا اكون ازعجتك .. لقد برح بى البرد ، وإذ لمحت النور فى نافذتك وانا امر بالدار ، خطر لى ان اعرج لاسالك إن كنت تستطيع ان تبحث لى عن غرفة فى هذا الفندق .. فقد طردت من غرفتى ، ولا ادرى اين اذهب » .

وتساءل مارسيل : « اذن ، فلم تعودى تقيمين مع صديقك الفيكونت؟ » .. فألقت الفتاة نظرة ذات معان على رودلف الذى ظل صامتا ، وهتفت : « لا .. لقد هجرته منذ شهرين .. مللته وسئمت وسائله الخسيسة وآراءه المضطربة الشوهاء .. انه فى منتهى الحماقة .. لن تستطيع ان تتصور إلى اى مـدى كان يضايقنى ، حتى لقد آثرت ان اموت جوعا عن ان اقبل منه درهما .. ولقد عدت إلى بيع الزهور بعد أن افترقت عنه ، ولكن السوق راكدة .. فعملت كنموذج لأحد الرسامين .. » .

وكأنما خشيت ان يغضب ذلك حبيبها القديم « رودلف » فأسرعت قائلة : « نموذج للوجه واليدين فحسب .. فانا اليوم من النحول بحيث لم أعد اصلح لشىء آخر .. » .

وهزت كتفيها فى حسرة .. واتجهت أنظار الزميلين تفحصانها فى إشفاق .. كان الهزال قد استبد بها فلم يبق على شىء من رشاقتها وجمال جيدها .. ونظرت « ميمى » إلى المائدة ثم قالت : « أرى اننى انسيتكما عشاءكما .. فلم لا تأكلان ؟ » .

واجاب مارسيل : « الواقع اننا لسنا جائعين » .. فتمتمت الفتاة : « انه لحظ ان لا يكون المرء جائعا » .

واخترمت لهجتها قلب رودلف .. وقال مارسيل مصـطنعا المرح : « ما دمت هنا فقد وجب ان تنضمى إلينا ، حتى تتفتح للأكل شهيتنا » .

وود رودلف أن يرفض ، ولكنه ما لبث ان انصاع لرجـاء « ميمى » .. وهمست الفتاة لمارسيل فى غفلة من عشيقها : « لشد ما برح بى الجوع ! » .. واقبلت على الطعام فى نهم، فاذا به — على تواضعه — يذكى قواها ومرحها ..



رأى أمامه « ميمى » .. أو بالأحرى شبحها ، إذ كانت بالغة الهـزال ، والوهـن ، والإعيـاء ..

واخذ الشابان بعد العشاء يتحايلان على اخبار « ميمى » فى تلطف ان لا مجال لإنزالها فى الفندق ، وإن كانا سيفردان لهـــا غرفة « مارسيل » لتقضى فيها ليلتها ، على ان يتشاطرا غرفة « رودلف » .

وعندما استيقظ مارسيل فى الصباح ، لم يجد صديقه إلى جواره .. ونهض يبحث عنه فاذا هو نائم فى مقعد إلى جوار الفراش الذى رقدت فيه « ميمى » ، وقد اســـند راســـه إلى وسادتها ..

وبادر رودلف عند استيقاظه إلى الخروج سعيا وراء بعض المال لابتياع طعام للغداء .. وفى غيابه ، فضفضت « ميمى » عن صدرها لمارسيل .. كانت لا تزال مقيمة على حب رودلف، فراحت تنحى على نفسها باللائمة لما سببته له بهجرانها من اسى وشجون .. ثم قالت وهى تنخرط فى البكاء : « على اننى لن البث ان ارحل .. بعيدا .. وإلى الابد » . اننى موشـــكة على الموت يا مارسيل ! » .

ومضت تحدثه عما لقيتهفىالحياة من عناء وعنت منذ غادرت رودلف ، وكيف ان اليأس تملكها حتى انها لم تعد تحفل بمـــا يصيبها .. بل انها اقدمت مرة على تعاطى السم لتتخلص من الحياة ، ولكنها اسعفت بالعلاج .. ويهتف مارسيل مواسيا : « ما ينبغى لك ان تقنطى .. لسوف نعمل على عـــلاجك حتى تستردى صحتك.. فما اراك سوى محتاجةللراحةوالعناية».

وعاد رودلف بعد ساعة مصطحبا كولين وشونار .. وكان الاخير يرتدى سترة صيفية برغم البرد ، إذ اضطر لان يبيع

سترته الشتوية كى يوفـــر لرودلف بعض المبـــلغ الذى كان ينشده .. ولم يكن كولين اقل منه تضحية ، فقد فرط ــ للغاية نفسها ــ فى الكتب التى كانت اعز ما لديه فى الوجود ، والتى كان يهون عليه ان يضحى باحد اطرافه عن ان يضحى بها ، لولا ان احدا ما كان ليرضى ــ كما قال الموسيقى الشاب ــ ان يقرضه مالا مقابل ذراع او ساق !

وتناول الجميع غداءهم معا ، فى جوهم القديم .. الجـــو الذى كانوا يعيشون فيه فى الأيام السابقة .. واخذت «ميمى» تقاوم ضعفها ومرضها لتبدو مرحة ما استطاعت ، من اجـــل اصحابها .. وجهدوا هم الآخرون فى ان يغالبوا اساهم من اجلها ، ومكثوا حتى تناولوا العشاء ، فى ضحك ودعـــابة ، كانما لم يكن يحزنهم شىء ..

٥ ــ دموع البنفســـج

● ويلجا رودلف إلى طبيب شاب من اصدقائه ، يرجوه ان يعود « ميمى » .. فما يكاد الطبيب يفحصـــها ، حتى يصارحه قائلا : « لن تقوى على انقاذها سوى معجزة .. ولا ينبغى ان تبقيها هنا ، بل لا بد من نقلها إلى المســـتشفى فـــورا ، حتى لا تضيع الفرصة الوحيدة التى قد يتسنى علاجها فيها .. وانى لأعرف احد الجراحين المقيمين فى « مستشفى الرحمـــة » ، وما اراه يضن برعايتها .. ولو استطعنا ان نستبقيها على قيد الحياة إلى ما بعد الشتاء ، لكان من المحتمل ان تستكمل الشفاء .. اما هنا ، فما اراها تستطيع العيش لاكثـــر من اسبوع ! » .

وصدع رودلف بالنصيحة ، فحمل ميمى فى اليوم التالى فى عربة إلى مستشفى الرحمة .. وإذ آن له ان يودعها ، راح يعدها بانه سيزورها فى اول يوم تباح فيه الزيارة ، وسيحمل إليها بعض زهور البنفسج التى تحبها .. وكانت المسكينة متجلدة ، حتى هم ان يتركها ، فاذا بها تنخرط فى البكاء وهى تلحف عليه فى الرجاء ان ياخذها معه ، وتردد بين نشيجها : « لن اقوى على المكث هنا ، فانا ادرك اننى سأموت ! » .

ولم يكن لدى رودلف ما يبتاع به زهور البنفسج فى يوم الاحـــد ، وهو يوم الزيارة .. فانطلق إلى غابتى « اولنى » و « فونتيناى » حيث اعتاد ان يتنزه مع ميمى فى اويقات الصفاء الهانئة ، وراح ينقب بين الجليد ، حتى اســتطاع ان يجمع حفنة من الزهور النادرة .. ورافقـــه شـــونار وكولين إلى المستشفى .. وكم كانت فرحة ميمى بمرآهم ، فهتفت فى حبور : « ما اصدقكم من صحاب .. لكم احبكم جميعـــا ! » .. ثم تحولت تقبل رودلف فى شوق ولوعة ، وتضم الزهـــور إلى صدرها الخائر المعلول ..

وانتهت فترة الزيارة ، فانصرف الأصدقاء ، وقـــد منى رودلف فتـــاته بان يعـــود إليهـــا فى يوم الثـــلاثاء .. ولكنه فوجىء فى مساء الاثنين برسالة مقتضبة من صديقه الجراح .. ينعى إليه فيها وفـــاة ميمى ! .. وكانت الصـــدمة اقسى من ان تستدر الدموع .. وإنما استحال الأسى إلى قوة قاهـــرة دفعت رودلف إلى أن يهيم على وجهـــه دون مقصـــد ، لا يكاد يستقر فى مكان ، بل يذرع الطرقات نهارا ، ويأوى إلى اقرب صديق ليلا ليلوذ بسقفه مسهدا ، مؤرقا ..

وفيما هو فى شروده ، إذ التقى بصديقه الطبيب ، وقد انقضى اسبوع على النعى المشئوم الذى تلقاه منه .. وهـــرع إليه الطبيب يصافحه فى لهفة ، ويسأله ان يغفر له ما ســـببه له نتيجة خطئه .. فلقد غاب عن المستشفى يومين فى إحـــدى المهـــام ، حتى إذا عاد ، ابصر بالسرير الذى كانت تشـــغله « ميمى » خاليا ، فاسرع يسأل إحدى الممرضات ، فاذا بهـــا تنبئه بأنها توفيت .. ومن ثم بادر إلى نعيها إليه ..

وحملق فيه رودلف ، وامسك انفاسه وقد توقع أن وراء هذا الحديث امرا .. وفعلا كانت وراءه مفاجأة ما كانت لتخطر لرودلف ببال .. إذ مضى الطبيب يخبره انه ما لبث أن تبين أن « ميمى » نقلت فى غيابه إلى « عنبر » آخر فى المستشفى ، وان الممرضة التى سألها لم تكن تدرى شيئا عن الامر ، إذ كانت حديثة عهد بهذا القسم من المستشفى ..

واردف الطبيب وهو لا يكف عن الاعراب عن اسفه واعتذاره : « هذا سر الخطأ الذى حدث .. وقد بادرت بارسال خطاب آخر إليك اشرح فيه الأمر ، واستسمحك .. » ـ ولكن رودلف كان قد انطلق هائما عقب النبأ الأول فلم يتلق هذا الخطاب ! ـ وبادر يقول ملهوفا : « يا الهى ! .. اذن .. دعنى اراها ! » .

وصحبه الطبيب إلى المستشفى .. وفى الطريق ، علم منه رودلف خلال سيل الأسئلة التى راح يمطره بها ، ان شيئا لم يطرأ على صحة ميمى ، فلا هى إلى التحسن ، ولا هى إلى السوء اكثر مما كانت حين رآها لآخر مرة .. ولكن القلق كان يستبد بها لطول غيابه ، فكانت لا تفتأ تسأل عنه ، وتخشى أن يكون مريضا ..

وعند باب المستشفى ، رجاه الطبيب ان ينتظر ريثما يمهد له حق الزيارة فى غير موعدها .. ووقف رودلف على احر من الجمر .. وخيل إليه ان كل دقيقة كانت تمر به اطول من عام .. ومرت خمس دقائق .. ثم اكتملت عشرا .. وكاد القلق واللهفة ان يخرجاه عن حجاه .. وانقضى ربع الساعة .. وما لبث الطبيب ان اقبل .. وهرع إليه رودلف منفعلا ، نافذ الصبر ، ولكن الشاب امسك بيده يهدئه .. ثم ساله وهو ينتقى الكلمات فى ارتباك :

— هب ان الخطاب الأول الذى ارسلته لك منذ اسبوع كان صحيحا !

وترنح رودلف ، وامتقع وجهه .. وتشبث بباب المستشفى وقد زاغ بصره ، واحس بقواه تتلاشى .. واستطاع اخيرا ان يصيح فى صوت جاف اجش : « ما .. ماذا ؟ .. يا الهى !.. هل .. ميمى .. » .

— اجل .. فى الساعة الرابعة من صباح اليوم !

وصاح فى لوعة محزونة : « خذنى إليها .. دعنى اراها ».. فقال الطبيب فى اشفاق : « ولكنها لم تعد هنا ! » .. واشار بيده إلى عربة كانت فى ساحة المستشفى .. وادرك رودلف من مظهرها انها من عربات نقل الموتى الذين لا اهل لهم ، إلى المقابر العامة !

وقال اخيرا للطبيب : « اننى منصرف .. وداعا ! » .

ورمقه الطبيب فى قلق ورثاء ، ثم قال له : « اتحب ان آتى معك ؟ » .

ولكن رودلف اشاح عنه قائلا فى صوت خنقه الأسى : «لا.. بل اريد ان اكون وحدى ! » .

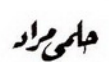
وتدافعت الشهقات من صدره وهو ينطلق هائما ، وراح يهتف فى نشيج صامت : « ميمى .. ميمى .. اواه يا ممى!».

* * *



عزيزى القارئ :

فى هذا العدد من (مختارات كتابى) ، جمعت لك كل هذه الروائع معًا : (جريمة حب) للروائى الفرنسى الكبير (بول بورجيه) ، تليها قصة (آسيا) للروائى الروسى الشهير (ترجنيف) ــ مؤلف قصة (الحب الأول) التى قدمتها لك فى العدد السابق من المختارات ــ ثم أقدم لك اليوم بعد (آسيا) ، رائعة (فولتير) الشهيرة (كانديد) ، تليها تحفة (فيكتور هوجو) الخالدة (أحدب نوتردام) ، وأخيرًا رواية (هنرى مرجيه) الشهيرة (صور من الحياة البوهيمية) ، المعروفة باسم (لاترافياتا) .. والآن أتركك لتستمتع بقراءة هذه المجموعة المنتقاة من الروائع العالمية .



قرش جنيه
٢ , ٠
رش